

الفصل الثاني

مدخل أبي العلاء إلي الاختراب

obeikandi.com

كف بصر أبي العلاء المعري وهو في الرابعة من عمره،... ومن هنا يبدأ حديثنا عن اغترابه،... ذلك أننا لا نعتقد أن أبا العلاء قد ألف هذه المحنة بما يوفر له حياة طبيعية، وبما يجعله ناظرا إلي الحياة نظرة بريئة من الحاح العجز وتناجحه الشعرية

إن هذه السن الصغيرة التي ابتلي فيها المعري بمحنة بصره، سن تشكل حياة الإنسان المستقبلية، بل تتحكم في كل مساراتها، "وليس في حياة الإنسان فترة ألزم للنمو النفسي من الفترة الواقعة بين الثالثة والرابعة من العمر، وهي التي يظهر فيها الشعور بالذات، وأهم من هذا كله أن الطفل يكون موقفه من نفسه في هذا السن، ففي الثالثة من العمر ينظر الطفل إلي نفسه أولا.... وتشاء المقادير أن يبقى هذا التأثير الأول لذاته عليه مدى الحياة، ويقرر خلقه كفرد تفريرا، ثم أن هذا التصور الأول للذات، ذلك التصور الذي يغلب عليه أن يكون ذا طبيعة غامضة غير محددة، يكبت عندئذ، ويكون عقدة تسميها "توما"^(١) ويتطور تأثير هذه المحنة الجسدية إلي أبعد من هذا حتى أننا نجد أن الصفات الخلقية عند الفرد، ترجع أولا، وبالذات إلي ظروف البيئة الأولى، وقد تنشأ هذه الصفات بسبب حادث واحد، أو نتيجة لجو فاسد غير صالح.

وغير خاف أن تجربة واحدة من تجارب الحياة، قد يكون لها من للتأثير الخطير، ما يغير موقفنا من الحياة تغييرا شاملا، ويبدل خلقنا تبديلا كاملا، وما نلاحظه علي بعض الناس من مظاهر الكآبة والشعور بمرارة الحياة ربما يرجع إلي قتل أو خيبة لمل"^(٢).

نستخلص من هذا أن فقد البصر كان العامل الرئيسي الأول لاغتراب أبي العلاء، وأنه هو الذي أوجد كثيرا من عوامل الاغتراب الأخرى، أي أسباب أخرى لم تكن كافية وحدها لتشكيل قوة تحويل مسار^(٣) حياة أبي العلاء لو لم تضاف إلي محنة فقد بصره.

وقد اتفق علماء النفس - علي تباين مدارسهم واتجاهاتهم - علي أن العجز الجسماني أو القصور الجسدي "أحد المكونات الأولية للشخصية، علاوة

(١) ج أ هـ فيلد / علم للنفس والأخلاق. ترجمة محمد عبد الحميد أبو العرم / مكتبة مصر

١٩٥٣م / ص ٧٢ بتصرف

(٢) للسابق / ص ٢١-٢٢

(٣) السابق / ص ٢٢

علي أن للجسم تأثيره علي اتجاهات المجتمع الخارجي".^(١)
ويشكل الشعور بالعجز في رأي " أنلر " عاملا فعلا في نموه
النفسي"^(٢) أي في نمو العاجز نفسيا.

وإذا كانت الآراء السابقة قد تناولت العجز في عمومته، فأنتنا نضيق
الدائرة لنرى الحياة النفسية للكفيف، ومدى تأثير كف البصر عليه في تعامله مع
ذاته ومع المجتمع الخارجي.

وبداية نعتقد أن عجز البصر من أكصي أنواع العجز التي تصيب
الإنسان لأنها إعاقة حقيقية عن الاتصال بالحياة، فالعين الإنسانية أداة تعرف
هامة علي الحياة تُغني أحيانا- في الضرورات- عن حواس أخرى كالسمع
وتقوم مقام اللسان في بعض الأحيان، لذلك فإن إعاقتها حادة.

ويحاط الكفيف منذ صغره- إن كان قد كف بصره صغيرا كأبي العلام-
بمعاملة غير سوية من المجتمع، ففئة تحيطه بالشفقة، وأخرى تحيطه بالاحباط،
وثالثة تنتقص من قدرته علي أي شيء، ورابعة...، فضلا عما يلقاه من أهله من
معاملة تكاد تكون متطرفة، فليس " للعمي أثر كبير في تكوين وتطور الطفل
الاعمى، مثل ما للخوف والحرمان والأسى الذي ينتج من شعور الأبوين".^(٣)
بما يحد من حرية تعرفه علي الحياة، فيستجمع معرفة ناقصة مشوهة بالوجود،
وتقوم بينه وبين هذا الوجود علاقة متوترة.

من هنا يبدأ كفيف البصر في فتح باب خصوصية حادة، يبدأ في نسج
شرفته المؤلمة التي هي مزيد من تعقيدته وغموضه، وتداخل عوالمه، بل هي
مزيج من الضعف والعداء لكل ما هو خارج الذات، فمنذ "اللحظة التي ينفصل
فيها الفرد عن بدن الأم، تبدأ أعضاء جسمه والأعضاء التي لحقها القصور في
جهادها ضد العالم الخارجي، وهو جهاد شاق جليل أشد وأكصي بكثير من عنفه
من الجهاد الذي تقوم به الأعضاء السوية"^(٤).

والعاجز في عمومته يطارده عجزه، وإحساسه الحاد بأن " الإصابة

(١) د. مختار حمزة/ سيكولوجية المرضي وذوي العاهات. دار المعارف ١٩٥٦م /

مفصولات جماعة علم النفس للتكاملي/ إشراف د يوسف مراد/ ص ٦٤ بتصرف

(٢) السابق / ص ٥٥

(٣) السابق / ص ١١٠

(٤) سيكولوجية المرضي وذوي العاهات ص ٤٨

لثرت علي شخصيته بأكملها، ويتأثر سلوكه فعلا على هذا الأساس " فيستولي عليه هم ملح أن يؤكد فاعليته للمحيطين به واقتداره الجسدي وأنه دائم الشعور بنقيض العجز^(٢) وفي ذات الوقت يقع تحت عبء وإغراء التقليل الدائم من شأن نفسه^(٣) سواء في حواراه الداخلي مع نفسه هذه، أو في علاقته بالآخرين.

ولأنه كثير الانطواء علي ذاته، فهو كثير النقد لها، والمراقبة لسلوكها، والمقارنة بين هذا السلوك الخاص وسلوك للمحيطين، وهي مقارنة تنتهي في الغالب بأن يجد نفسه أقل من الآخرين فيصغرها، بينما هو إذا نظر إلي نتائج أفعالها التي خرجت من إمكانات متواضعة، لمتلا بالاكبار والتقدير لها" فهو في صراع دائم بين القيم المادية والقيم الروحية، فهو إلي أسفل إذا فكر في الأولي، وإلي أعلى إذا فكر في الثانية"^(٤).

وينفرد الكفيف بعالم مميز، قوامه للرئيسي للبحث عن طرق ملائمة للتعرف علي العالم، طرق لا تثير الشفقة أو الاستهزاء، وهو في الغالب يستطيع أن ينمي حاسة ما من حواسه، كاللمس مثلا، لذلك يتمركز اهتمامه حول جسده مبكرا" فإن حياة الطفل الأعمى الاجتماعية تتركز منذ البداية حول نفسه، وتستمر كذلك علي مدى حياته"^(٥) وقد يتعمق انطواء الكفيف علي ذاته، ويفتقم خوفه من العالم الخارجي، إلي حد أنه يفتقد الأمان في هذا العالم^(٦).

ولأن الحياة قوية، فإن الإنسان منطور علي البحث عن سبل تعويض لما يفتقده فيها- ماديا- ليستطيع أن يكمل المسيرة، والعاجز تعلقو عنده القدرة علي التعويض أو الدفاع عن الحياة، فتنمو دلاله نزعات تتناقض مع إحساسه بالعجز- وأن كانت تدل علي هذا العجز، كغريزة حب السيطرة، أو النمو المتضخم للنزعة الفكرية^(٧).

ومع ذلك يهدد العاجز انشغاله بعاجته الجسمية، فقد يؤدي هذا الانشغال إلي كراهية الحياة، وتعهد إماتة كل الغرائز المحتوية بها، أو إضعاف هذه

(١) للسابق/ص ٤٦

(٢) للسابق /ص ٥٦

(٣) السابق /ص ٥٢

(٤) السابق/ص ٥١

(٥) السابق/ص ٣٦.

(٦) السابق/ص ٤٩

(٧) هانيلد. علم النفس والأخلاق / ٢٠.

الغرائز علي الأقل- ، وقد يصل هذا إلي التفكير في الانتحار أو الإقدام عليه^(١) وانتحار صاحب العاهة انتحار مادي ومعنوي، فمجرد مقاومته لطبيعته وحيويته إماتة متعمدة للحياة داخله، لذلك فالكتب سلوك ملازم للعاجز لأنه انعكاس طبيعي لخوفه من المواجهة وإحساسه أنه محط مراقبة، " و يترتب علي الصراع والكتب أن يخفق قسم كبير من شخصيتهم في الظفر بالتعبير التام. ويسمي " جانية" هؤلاء الناس (السيكابستينين) أي المصابين بالأرهاق النفسي، وأهم مظهر يميز مرضهم هو الشعور بعدم الاكتمال، أو عاطفة عدم الاكتمال كما يسميها (جانية)، فيشعر المريض بأن شيئا ما ينقصه، وبأنه أمام خسران ويهاب مواجهة العالم، وما فيه من العقبات، أو يهيم علي وجهه كأنما يبحث عن شيء فقده، وهو في الواقع يبحث عن بر السلامة، أو شط الأمان من أي شيء يعرض له، كما أنه لا يهتم بطعامه وشرابه، إنه قد أخفق في تحقيق ذاته^(٢).

والعائش في كتب أهوانه يعاني- كما يقول علم النفس- موات الحياة أو "النور استنيا الخلقية".^(٣) فهو شخصية منقسمة علي ذاتها، غير مكتملة لأن اكتمال الذات هو توافق جميع العواطف والعقد معا" تحقيق هذا التوافق هو الذي نسميه " تحقيق الذات" وللحالة الناتجة عن هذا التحقيق هي التي نسميها: "السعادة"^(٤).

فالعجز ولد حياة غير سوية، بل ولد حياة غاية في التقيد والتدخلات والخلط، خاصة إذا ما كان العجز مصابا في المراحل الأولى من العمر، لذلك كله نرى أن فقد البصر كان الأساس العميق في بيان أبي العلاء المعري نفسيا وفكريا، ومن ثم فهو خالق لقضاياها سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، ... مختلفين بذلك مع رأي بعض الدارسين والنقاد الأفاضل الذين لم ينسبوا لمحنة بصر أبي العلاء تلك الأهمية، فقد أرجع د. طه حسين عزلة أبي العلاء وشقاءه الاجتماعي إلي غريزته الوحشية وأفة بصره^(٥) وكان الغريزة الوحشية قد

(١) سيكولوجية للمرضي وذوي العاهات/ ص ٦٠.

(٢) علم النفس والأخلاق/ ص ٨٨.

(٣) السابق/ ص ٣٥.

(٤) السابق/ ص ٩٠.

(٥) د. طه حسين مع ليبي للعلاء في مجنه دار للمعارف ط١٣٠٠/ سنة ١٩٨١م/ ص ٦٢

سبقت في الوجود آفة البصر أو بمعنى آخر - كان أبا العلاء قد ولد بتكوين نفسي هياه لمثل هذه الحياة. . . ولعل د. صالح اليزبي يؤكد ميله إلي هذا الرأي حين يرى أن " بذور العبث والتشاؤم والشك في جدية الحياة ومصير الكون كلها كامنة بالفطرة في نفس أباي العلاء، ولا يستقيم لدينا بحال أن يكون العمي هو العلة وراء ذلك المناخ النفسي العلاني المميز والمعقد." (١) والحقيقة أننا ندهش من رأيه هذا الذي يلغي قيمة التجربة الإنسانية وأثر ممارسة الإنسان للحياة وارتطامه بها، ولا يستقيم لدينا بحال- علي حد تعبير د. اليزبي- أن يمتلك أي إنسان سواء أكان أبا العلاء أو غيره- بذور مواقف ضخمة من للكون، وبذور مثل هذه المشاعر بالفطرة، إذ أن هذه المواقف وهذه المشاعر لا تتولد إلا من الاحتكاك والتأمل العميق في كآفة أرجاء الوجود، ومثل هذه البذور لا تورث،.. بل أن بعض الميول النفسية الأخرى وبعض القدرات الفكرية- كحب الطم والقدرة علي التصنيف والتقد- وهي قابلة لقانون الوراثة نستطيع في حال كحال أباي العلاء أن نجد لها تفسيراً عريضاً مرتبطاً بمحنة بصره.

أن الموقف من الحياة لا يتشكل إلا بعد الصراع معها واختبارها، ومن هنا تنوعت الحياة الإنسانية تنوعاً خصباً، وكذلك فإن الطم يقول لنا أن هناك إمكانية واسعة للتحكم في طرق تفكير طفل ما، وسلوكه، ومعتقداته، إذا ما نقل من بيئة ما إلي أخرى- صغيراً- بما يلغي فكرة التهيؤ الفطري. لكن الحالة الوحيدة التي لا يحدث فيها النقل من بيئة إلي أخرى اختلاقاً ينكر في المناخ النفسي لهذا الطفل هي أن يكون هذا الطفل مصاباً بعجز ما، هنا يسيطر علي الإنسان طيلة حياته الشعور بأنه حالة غير طبيعية في الكون، حيث الجميع حوله أسوياء، أما هو فيبدو نتوءاً شاذاً أو وضعا استثنائياً،.... ومن هنا يبدأ صراعه مع المجتمع الطبيعي، المحيط به.

وعلي رغم نفي د. اليزبي قيمة كف للبصر في تكوين المناخ النفسي لأباي العلاء يذكر في أحد مواضع مؤلفه أن للعماء من مكونات الشخصية العلانية فكراً وشعوراً (٢) وأنه كان تليلاً شخصياً ملموساً مباشراً ودائماً علي

(١) د صالح حسن اليزبي الفكر والفن في شعر أباي العلاء للمعري " رؤية نقدية عصرية

للتراث" دار المعارف ١٩٨١م / ص ٢٤

(٢) الفكر والفن في شعر أباي العلاء للمعري/ ص ٣١٨

عبث الحياة وفوضاها وانتفاء المنطق عنها - عود في موضع اخر ليقرر ان تجربة أبي العلاء لم تكن لتتغير لو لم يكن أبو العلاء قد فقد بصره^(١).

وفي معرض الحديث عن معايشة أبي العلاء لمحنة بصره عبر مراحل سنوية مختلفة يضطرب رأي د. طه حسين نيابة عن ثبوت التأثير البالغ لهذه المحنة علي نفس أبي العلاء في المرحلة المبكرة من عمره، وتارة أخرى يراها ليست ذات خطر في تلك المرحلة، يقول:

" فقد أبو العلاء بصره صبيا واستقبل الحياة غير مستمتع بهذه الملكة التي ترسم في نفس الأحياء من الحياة ما لا عهد له بها، ومع ذلك فقد جاوز الصبا، وتقدمت به السن إلي الشباب، وتقدم به الشباب إلي الكهولة دون أن ينكر من أمر الوجود شيئا ذا خطر، أو دون أن يشتد انكاره لأمر من الأمور.

وما من شك في أنه قد أحس منذ أول عهده بهذه المحنة الطبيعية فرقا عظيما بينه وبين أترابه، وما من شك في أن إحساسه هذا الفرق قد ألمه وأذاه، وأسبغ علي نفسه شيئا من الكآبة المتصلة القاتمة، واضطره إلي كثير من التحرج والتحفظ والاحتياط في سيرته العملية، ولكن ما من شك في أنه قد قهر هذا كله، وظهر عليه وقتا طويلا من حياته.

فقد اجتهد في أن يسير سيرة غيره من الناس، واجتهد أهله في أن يهيئوه لهذه السيرة ما وسعهم ذلك"^(٢).

ونحن حين نعاين قصائد سقط الزند ندرك أن أبا العلاء في تلك المرحلة من عمره لم يقهر هذه المعاناة التي تولدت من كف بصره، وأنه لم ينج من كثير من المشاعر السلبية التي تنتج عنها، كما سنتلمس ذلك أيضا من خلال اللزوميات وهي مرحلة متأخرة زمنيا نفترض عقليا قهر أبي العلاء لمعاناته فيها، ولكننا سنرى أنه لم ينجح في ذلك وأن كان قد فتح آفاقا إنسانية أوسع في تناوله لهذه المعاناة.

مدح أبو العلاء بعض القوم في سقط الزند، ورثا البعض الآخر، وعالج شعر الفخر، وهنا أحدهم بمولوده، وهنا الآخر بزفافه، وبارك لثالث عودته

(١) للفكر والفن في شعر أبي العلاء للمعري/ ص ٣١٨.

(٢) لسابق/ ص ٣١٧.

(٣) مع أبي العلاء في سجنه/ ص ٥٥ - ٥٦.

سالما من السور ، إلي آخر هذا مما سماه أبو العلاء .متحات لسوس الشعر
وسماه دبطه حسين اجتهدا من أبي العلاء لئنشبه بعيره من الناس أو اجتهدا
لمصالحة الحياة.

يضاف إلي هذا ما يروى عن أبي العلاء من ظفره ولعبه بالشطرنج
والنرد واجازته للشعراء بأبيات مرتجلة،... إلي آخر هذا من مظاهر علاقته
بالآخرين في تلك السن،...

والحقيقة أن هذا السلوك وهذا الشعر . الذي رآه أبو العلاء امتد لنا
لسوس الشعر- في جزء كبير منهما مقاومة لكف البصر، ولكنها مقاومة ليست
صحية، بل مقاومة هذيان وتخبط، لأنها قائمة علي الصخب والافتعال وردود
الأفعال العنيفة التي تستقطب الأنظار محاولة أن تقنعها بالفكاك من أسر العاهة
الجسدية

أن حياة أبي العلاء في هذه المرحلة لا تعكس قهره لعاهته، بل تعكس
قهر العاهة له واقتدارها عليه، وهذا طبيعي لأنه في مرحلة الصبا حيث
التناقض بشع بين طبيعة هذه المرحلة- فسيولوجيا وسيكولوجيا- وبين تبعات
العاهة وقيودها،... أن ارتطام الجموح بالعجز لا يتحول إلي أدني من هذه
المظاهرات الصاخبة والتظاهر المثير للألم والشفقة، . أن أبا العلاء- في هذه
المرحلة- قد أحاطت به ذاته تماما فلم ير إلاها ولم يراها إلا من خلالها، علي
عكس مرحلة أخرى متأخرة سنتنظر فيها الذات إلي طبيعتها ومحنتها نظرة أكثر
نضجا.

يشير مضمون قصائد سقط الزند- مع التفاوت الزمني بينها- إلي أن أبا
العلاء لم ير في محنة بصره إلا الدلالة علي الشر، بل هو رآها شرا محضا،
مما ملاه بمشاعر الغضب والوحدة والتمرد،... كانت محنة البصر معادلا للعجز
الدائم والإحباط، لذلك نألف في أشعار سقط الزند تكرار أمنية بعينها لأبي
العلاء، هي التشوف إلي مذاق التعب: التعب المتولد من الحركة والتجوال- لا
ذلك التعب المنبعث من برائن العجز- يحلم أبو العلاء أن يضنيه وناقته إرهاب
المسيرة، وربما إرهاب الرحيل بحثا عن الآمال بما يعد شكوى غير مباشرة من
العجز المتولد من العماء ، يقول :

تعالى الله هل يمسي وسادي
يمين للشملة أو شمال
وهل أرمي بمتلفة نجيبا
متي ينهض فليس به انتقال^(١)

وسقط الزند لا يقدم إجابة ببضء لهذا التساؤل، بل أنه يري الواقع واقعا
يفرض عليه كل دلالات اللاستطاعة، يقول أبو العلاء:

وكيف يجزّ الجيش، يطلب غارة
أسير لمجرور الخيول كحيل^(٢)

لقد تراعت له حقيقة الحياة البشعة، بدا له تطلعه إلي الأمل والحياة
الطبيعية حلما مزيفا، بل حلما منقلبا إلي خسران وأذي، وكجناحي النسور أو
كريشه للذي كان يسغه في الطير لتتزايد سرعته، فإذا به في حال آخر يصبح
ريشا في سهم- في حرب وصراع-،.... يقول أبو العلاء:

شكوت من الأرام تبديل غائر
بواقف، ونقلا من سرور إلي هم
وحالا كريش للنسر بينا رأيتَه
جناحا لشهم أض ريشا علي سهم^(٣)

أن العجز والحركة ثنائية متصارعة، مهيمنة علي شعر أبي العلاء، بل
هي تلخص كثيرا من الاتجاهات الموضوعية لشعره- كما تفتح أفقا ثريه
للحديث في الخصائص الفنية لهذا الشعر- فهذه الثنائية تصور طبيعة صراعه
مع الكون، وتحدد زاوية نظرتَه إليه، وتعين للجانب الذي يهيم منه،... أن أبا
العلاء في نظرتَه إلي الكون لا يَستترعي اهتمامه إلا تلك الحيوية التي يتمتع بها
الكون ومفرداته وعناصره المختلفة وإلا تلك المفارقة بين هذه الحيوية وعجزه
الشخصي، وستقلب عليه ذات النظرة في تناوله للمسائل الميتافيزيقية- وأن
كانت ستتسع لتشمل عجز الإنسان في عمومها بالقياس إلي حيوية الكون- وتلك
الحيوية ليست فقط للكونن الحية، بل أن أبا العلاء يطالعها في الجوامد التي
تنمو أمامه وتتحرك، وهو علي ما هو عليه من توقف وركود!... بما بعد انعكاسا
للعناء، يقول:

(١) شروح سقط الزند ق٤ تحقيق أ. مصطفى السقا، عبد السلام هارون، عبد الرحيم
محمود، إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، إشراف د طه حسين. الهيئة المصرية
للعامة للكتاب ١٩٨٧م/ص ١٦٦٦

(٢) ديوان سقط الزند. بيروت. دار بيروت للطباعة والنشر. ١٩٨٠م/ص ٢٢١

(٣) شروح سقط الزند/ق ٣ ص ٩٤٩ الشهم السريع من كل شيء

غصن الشبّاب عصي السحاب فلم يعد
دا حصرة، إذ كل غصن أخضر
قد لورقت عمد للخيام وأعشبت
شعب الرحال ولون رلسي اغبر^(١)

وهنا نرى الصراع بين العجز والحركة ممثلاً في الصراع بين تورق عمد الخيام وأعشوشاب الرحال من جهة ، وبين رأس أبي العلاء المغبر من جهة أخرى ،... فتورق الخيام إمعان في الإقامة والبقاء في المكان، إمعان في الثبات، وعشب الرحال كذلك عظيم الدلالة علي تعطيل قوي الرحل والراحلة، وإبقائهما دون استئثار وتوطئتهما بعيداً عن السفر والحركة والسعي،... لما رأس أبي العلاء فمخبرة- وهذا الطرف الثاني من الصراع- مخبرة من الترحال والسعي والابتلاء بالرحلة ، وهذه الرحلة أمنية معنوية تتصارع مع الواقع المتمثل في همود الجانب المادى الملموس للرحلة أي الرحل والراحلة، لكنها أمنية تدل علي جهاد أبي العلاء الداخلي لسطوة العجز والتفاهة حوله.

ويتمثل جهاد أبي العلاء للجذب في موضع آخر من سَطِّ الزند، يصور سعيه وراء الماء، هذا السعي الذي يصل إلي حد العض بالنواجذ علي الماء.

والماء وردي، لا تزال نواجذي في منتضاه سوابحا، كأوازم^(٢)

أن البيت السابق يطرح تصور أبي العلاء لنتيجة الصراع بين العجز والحركة، فنتيجته هي العض علي الماء، هي الخواء واللاجدوى و.....و..... وأبو العلاء لا يطلب من الحياة حلولا مؤقتة، لا يطلب منها هدمه أو تأجيلها، بل يطلب الحياة المكتملة التي إن لم تتحقق أعرض عن أنصاف الحلول:

وإذا البحر غاض عني، ولم أر
و، فلا رى بانخار الثماد^(٣)

أنه لا يرفض فقط لشباه الأشياء، بل هو ينفي بحزم قيمة إمكاناتها وكثرتها علي الإشباع.

إن مثل هذه المعاني المتصلة بالعجز - أو بمحنة فقد البصر - في شعر

(١) ديوان سقط الزند ص ٢٢٥

(٢) ق/٤ ص ١٤٧٨ أولام جمع لزم والأزم للص

(٣) ق/٣ ص ١٠٠٢ الثماد / جمع نمد الماء قليل

السقط تمثل جزءاً من موقف أبي العلاء من هذه المحنة، تصور جانباً من هذا الموقف هو جانب وصف المحنة وأثارها علي أبي العلاء، وتصف المفارقة بين حال أبي العلاء وواقع الحياة حوله.

وثمة محور آخر يجمع كثيراً من قصائد السقط، هو محور تمرد أبي العلاء علي محنة بصره، واستكراه لما تستتبعه من نتائج سلبية تحدد له حدود حركته الداخلية والخارجية في الحياة، فهو يحتج علي خمول حياة العاجز، وجذب واقعه، يحتج علي تلك الجياد والنوق التي لم يرسلها للخير بعد، أو التي لا يستطيع أن يرسلها أبداً، يتمرد علي عجزه عن الحياة، يقول:

الأخمل والنباهة في لفظ واقتر والقناعة لي عتاد
وألقي الموت لم تخذ المطايا بحاجاتي، ولم تجف الجياد^(١)

أنه رفض داخلي لمصير داكن، رفض قد يدل علي رغبة متوثبة في الحياة تأتي علي أبي العلاء العيش مانتاً، يقول:

ولي منطلق لم يرضي لي كنه منزلي علي أنني بين السماكين نازل^(٢)

وكما قلنا فإنه رفض داخلي يتلبس أحياناً روحاً غير روح أبي العلاء، حين يستمد القوة من الموروث الشعري، كالبيت السابق الذي نرى فيه روح أبي الطيب المتبني واضحة، نرى فيه اعتراضاً بالذات غير نابع منها هي،... لما أبو العلاء فإنه حين يكون ذاته الحقيقية، يصور لنا صراعه بين هذا التمرد، وبين استسلامه لظلام العجز الذي يراه مهيمناً عليه، حاكماً رئيسياً لخطواته، يقول:

عللني، فإن بيض الأمانني فنيت، والظلام ليس بفان^(٣)

أن تمرداً و غضبه لم يدفعه إلي إيجابية تذكر، لم يقا به علي طريق للخلاص، بل قد انساق كلية إلي اللون الداكن من الحياة، فحين يتصارع داخله بين مدح الحياة - أو الزمان - ونمه - يميل أبو العلاء إلي اللطم، الذي هو نتاج شرعي للحرمان والمكابدة والجوع، يقول:

كم أردنا ذاك الزمان بمدح فشفغنا بنم ذاك الزمان^(١)

(١) ق/١ ص ٢٨٧ وخد للمطايا مشيتها السريعة وكذلك وجيف للجيلد

(٢) ق/٢ ص ٥٢٧ للسماكين - الأعزل والرامح.

(٣) ق/١ ص ٤٢٥.

خلق العماء تركيبا يعسب حاصبا لأبي العلاء، قوامه تلك الثنائيات المتصارعة فهو محب للحياة، كاره لها . أو ناغم عليها، مشفق علي ذاته منكر لانتمائه إليها مطالب للموت خائف منه، عظيم الثقة بعجزه، عظيم الثقة بأدبه وفكره وإمكاناته الأبداعية، لذلك فقد أرهقت روحه تحت وطأة هذه الثنائيات وبدا للنقاد روحا مستوحشة في الحياة^(٢) سوداوي المزاج^(٣) مرعقا بخربة اقتحمته من الداخل لا من الخارج^(٤).

وهذا يسلمنا إلي جانب آخر من جوانب موقف المعري محنة بصره، هذا الجانب هو النتيجة التي وصل إليها المعري من صراعه مع هذه المحنة وتمرده عليها، وقد أشرنا إليها منذ قليل، هذه النتيجة هي:

" استسلام أبي العلاء للعجز، واقتناعه وإيمانه المطلق بفشل مجاهدته له، خاصة أن تلك المجاهدة كانت تدور في مجتمع لا يقيم وزنا للأرواح النبيلة والنفوس العالية، ويلخص أبو العلاء تلك النتيجة في بيت واحد، يخاطب فيه الحياة بقوله:

وظلم أن أحاول فيك ربحا ولم أخرج إليك برأس مال^(٥)

وهو لا يعزى فشله إلي الكسل أو القراخي، بل إلي الحياة التي لم تعطه الآلة المادية للجهد، والتي عطلت قوى خيله ومطايه فيركا، يقول:

وما نهنت عن طلب ولكن هي الأيام لا تعطني قيادا
فلا تلم السوابق والمطايها إذا عرض من الأغراض حادا^(٦)

هذه النتيجة التي استسلم إليها أبو العلاء جعلته يري العجز المادي أعظم دليل علي فوضى الحياة، واقتناعها للمعايير الثابتة، واقتناعها أصولها للمنهج،.... أن العجز البني في رؤية أبي العلاء هو أيضا مسوغ للخوف واقتناع السكينة في الحياة، يقول:

-
- (١) ق ١/ص ٤٢٨
(٢) د علي لدم بين الفلسفة والأدب دار المعارف ١٩٧٨م/ص ٣٦
(٣) للزميل تحقيق أمين الخانجي ج ١ المئمة /ص ٣
(٤) د صلاح البيضي الفكر والفن ص ٨٣-٨٤
(٥) ل ٢/ص ٢٣٨
(٦) ديوان سقط للزند بيروت ص ١٩٧

لا تأمن الكف من أيامها شللاً ولا النواظر كقفا عن أو رمدا^(١)

ولا يكف أبو العلاء في شعره عن رفض مبدأ مسنوليته في الحياة واستحقاقه للمساءلة والحساب فيها، فقد اطفأت الحياة نبراسه، بما يسلبها حق محاسبته علي التخطي، يقول:

إذا تلت فوائدا جفينا بذاك يذم أبقته الخليط
ولم لوثر لمصباحي خمودا ولكن خان موقده السليط^(٢)

وكثيرا ما يربط أبو العلاء- في أدبه عامة- بين كف البصر وضعفه في الحياة صراحة وفي غير حاجة إلي للتأويل، يقول:

" الحد كليل، والأيد قليل، وبالله اعتمص الضعفاء".^(٣)

وكثيرا ما يستعير جناح الطائر- كما سنرى في تحليل الصورة والتشبيهات والاستعارات في شعره- ليلحق به الكسر والقصور مصورا حاله، ويقينه من نتيجة العجز، يقول:

بت لسيرا في يدي برهة تسير بي وقتي ، إذ لا أسير
كطائر، قيل: ألا تغتدي فقال: أني، وجناحي كسير^(٤)

كذلك يصور ذاته في موضع آخر جملاً "ظهره مقل"^(٥) بالعبء عاجزا عن السير، وتارة أخرى قرسا محنية.^(٦)

ويصور ذاته شديد الظمأ يسعى إلي البئر دون آلة، فحلوه بلا حبل يمدده به إلي الماء، يقول:

لبت حول الماء من ظمأ إن غربي ماله مرص^(٧)

(١) ل/١ ص ٢٥٩.

(٢) ل/٢ ص ٧٢.

(٣) للفصول والفتايات/ تحقيق محمود حسن زنتي الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٧م/ ص ٣٦٨.

(٤) ل/٢ ص ٢٢.

(٥) ل/٢ ص ١٩٦ ويرى شارح البيت في هلمش الصفحة أن أول البيت " ولنا" بمضي قرب ونعتقد أن الأكثر ملائمة للمعنى أن تكون " ولنا" صمير المتكلم للمنفصل.

(٦) ل/١ ص ١٥٢.

(٧) ل/٢ ص ١٩.

وصور الماء أو الصور التي تصور صراع أبي العلاء من أجل الماء /
الحياة كثيرة في شعره في السقط والدرعيات واللزوم

وفي موضع آخر يعرض أبو العلاء أمامنا مبررات استسلامه إلي
محنته الجسدية حيث يصور التناقض بين رغبته في الحياة وبين استعداده لها
بإمكانات ثرية حيث تبدو هذه الإمكانيات كقائمة أهل عاد،- وبين حاله الخارجي
الذي يبدو مستعيرا قامتته من قامة الأكرام، يقول

ولقد غدوت بأمة، وبأمة قزميتين، وهمة من عاد^(١)

وأبو العلاء لا يري لعجزه شفاء ومخرجا، بل أن احساسه بهذا العجز
يجعله متيقنا من أن كل داء في الحياة له دواء، وكل عثرة لها قيام إلا عثرته:

"أنت قوائم المهيب، وانتعش العائر، وجبر الكسير، وأنا علي طريق
الكمد مستقيم."^(٢)

أن معاناة أبي العلاء من كف بصره تفسر بعض مواقفه في رسالة
للغفران- وفي مصنفاته الأخرى- حيث يعمد في هذه الرسالة إلي شفاء كل
صاحب عاهة منتهزا فرصة تحكمه الأدبي في مصائر شخوصه ليحقق أحلامه،
ويرضي جوعه إلي الحياة السليمة الخالية من العجز لذلك "لا تجد في جنة
غفرانه عاهة- من أي نوع- لقد انقلب للمجتمع شبانا أماليد، أو حورا عين....
لعله قانون للتعويض مرة أخرى."^(٣)

وسنرى تحكم هذه الرغبة الداخلية للخاصة في كثير من سلوك أبي
العلاء في الحياة، في علاقته مع المجتمع، في الألب والشعر حين يتوجه إلي
قضايا بعينها، بل سنرى أن محنة فقد البصر لها يد طولي في الناحية الفنية
لشعره، حيث نتحكم في اختياره لألفاظ لغته، وصوره وأساليبه، وخصائص
بداعه عامة.

أن تأثير محنة فقد البصر علي أبي العلاء ولخصها قوله:

(١) ديوان مقط للزند/ ص ١٩٧

(٢) للفصول والغايات/ ص ٤٣٦

(٣) خليل شرف الدين/ أبو العلاء للمعري/ ص ١١٧

دنياي: حل لي زاد أستعين به علي الرحيل، فإني فيك محتبس^(١)

حيث يكرون الحبس هو فلك أبي العلاء الذي يدور حوله، ويحاول الفكاك منه، والذي ينتسب إليه حين سمي نفسه تارة "رهين المحبسين"، وتارة "رهين ثلاث محابس" - في لحد مواضع شعره، -... لكن أبا العلاء يبدو أمامنا رهين محابس كثيرة تفوق الحصر، أنه كما يبدو من البيت السابق، وغيره - راغبا في الحياة، مهزوما فيها، تدفعه هزيمته إلي طلب الموت أو الرحيل عنها، وهو لا يمتلك القدرة علي الرحيل، لا يمتلك إمكاناته المعنوية التي هي كراهة الحياة وتخليها طلاقة باننة، فيظل يتأرجح بين كل هذا رهينا له، حبيسا في دائرته، لا يستطيع أن يحسم الأمر متصالحا مع محنته، ولا يستطيع أن ينظر إليها بعين غير بشرية: عين خارجية عادلة محايدة واعية مستشفرة للغييب، عالمة بالمعني الدقيق للخير والشر، المعني غير الظاهري لهما.

وهذا الجانب من موقف أبي العلاء من محنة بصره بسلمنا طواعية إلي مناقشة ما يقال في زهد أبي العلاء وانصرافه - انصراف مقتدر - عن الحياة، هذا الجانب الثالث وهو استسلام أبي العلاء للهزيمة وإيمانه المطلق بعيب مجاهدة العجز بنفي مقولة الزهد هذه، ويبدو أنه يلتبس بها فيخلط بعض الناظرين إلي شعر أبي العلاء بين المعنيين، وإذا كان وصف أبو العلاء لعجزه، وإذا كان عرضه للمفارقة بين جذب حياته، ولامتلاء حياة غيره، وإذا كان تمرده علي العامة، واحتداده علي نتائجها - إذا كان كل هذا - غير مقتنع في نفي مقولة زده - فإن أبا العلاء يترك لنا في شعره - وفي أدبه عامة - ما يقطع برأي في هذه المسألة:

يصف أبو العلاء الحياة مؤكدا أن فاعلية الإنسان فيها رهن عثوره علي الإمكانيات أو البيئة الخصبة المستثمرة لهذه الفاعلية، ... هنا فقط يتحقق وجود الإنسان، أما إذا صادف أرضا غير مثمرة، فإنه لا يستطيع التواجد، مثله مثل الشرارة التي لا تصبح نارا متكاملة إلا إذا وافقت أكلا تتعلق به،... وحياة الإنسان - كل إنسان - لن تخرج عن أحد هذين الاحتمالين في رؤيته حيث يقول:

مثل الفتى عند التغرب والنوى مثل الشرارة إن تقارق نارها

(١) ل/٢٢ ص ٢٢ .

أن صادفت أرضاً ارتك خمودها أو وافقت أكلاً ارتك منارها^(١)

وينتقل أبو العلاء من عموم الإنسان إلى عالمه الخاص، فيصف أماله بأنها تشبه النساء المقيدات- أو النائيات- ويتساءل: هل له إمكانية في الحياة الصحيحة، وقد حذف الزمان منه جزء أصيلاً؟

حوائج نفسي كالفواني قصائر وحاجات غيرى كالنساء الرذائد
إذا أغضب الخيل الشكيم فمالها عليه اقتدار غير أزم الحدائد
وكيف أرجي من زمان زيادة وقد حذف الأصلي حذف الزوائد^(٢)

ولأن الأصلي حذف الزائد فإنه من العبث محاولة الانتجاع وطلب الكلا^(٣) كما يفعل الناس، وبذلك يصبح الجذب ضرورة تلازم حياة أبي العلاء ليل نهار^(٤) وتتعبه، فهو برئ من أنه طالب الخصب بلا جدوى تهمة السعي إلى الجذب.

ويصف أبو العلاء حالة بأنه أقل مما يريد من الحياة،... ويصف علاقته بهذه الحياة بأنها علاقة مضطربة طرفاها علي نقيض، فبينما هو شجرة ضعيفة تحتاج إلى المد والغيث، تكتفي الحياة بأن تعطي له مظاهر الغيث ومقدماته فقط، من برق وغيم وغير ذلك مما لا يتعدى هذه الحدود، ومن ثم يحتجز المطر عن تلك الشجيرة، وتبقى علي حالها من الضعف والجوع،... يقول المعري:

دهرى قتاد، وحالي حالة ضؤلت عما أرى—، ولوني لون لبلاب
وإن وصلت فشكري شكر بروقة ترضي ببرق من الأمطار خلاب^(٥)

وفي إحدى رسائله يفصل أبو العلاء في وصف علاقته المعقدة بالحياة مؤكدا معاناته من الحرمان، وانصرافه انصراف العاجز لا القادر عنها، يقول:

" أن الله عزت عظمته حكم علي بالازهاد، فطفت من العدم في جهاد،

(١) ل/١ ص ٣٦٩ .

(٢) ل/١ ص ٢٦٣ للنساء للقصائر: المقيدة الرذائد: المطلقة

(٣) ل/١ ص ٧١ .

(٤) ل/١ ص ٣٩٨ .

(٥) ل/١ ص ١٢٣. قتاد: شوك ضؤلت " صغرت وحقرت

بروقه شجيرة ضعيفة تخضر إذا غامت للسماء ولم تمطر

وتعرضت للعناء تعرض نكل عاجز ، ليس لخطوتها بالمناجز ، فرمحتني
كرمح الشموس ، وقالت لي : عليك بالرموس ، وناذت : صاحبي سواك ، ولن أبلغ
هوالك ، وانصرفت كما قيل في المثل : مكره أخاك لا بطل ، وحظي من الدنيا
العطل ، فغفلت برهة ثم أبهت ، ونبهني الفكر فانتبعت ، وهل يحل أن أكون سائلا
له أو مسؤولا ، بل هو الأيك أتبعه مؤولا ، ولكن أحكي المسألة عن غيري ، وأن
كنت ابتغي بها ميرى ."^(١)

وفي مقدمة ديوان سقط الزند يصف أبو العلاء جرمانه حين يصور
امتداد عمره بأنه شجر غير مثمر ، وأن أثمر فورقة غير مجدية ، يقول :
" ومد العمر ، فكأنما سنوه السمر ، وعدم عنده الثمر ، وإنما وجود بدبي
ليس بطائل ، لا يسمح بقوت العائل ."^(٢)

ويبعث أبو العلاء إلي أحدهم بهدية متواضعة معذرا عنها بأن حاله أقل
منها^(٣) ويقول كذلك في رسائله ، ناظرا عنه الزهد مؤكدا اضطراره إلي حياة
ضيقة ، لا يطمع إلا في اتساعها :
" ورأيتي مضطرا إلي القناعة فقالت زاهد ، وأنا في طلب الدنيا
جاهد"^(٤) .

وأبو العلاء لا يترك مناسبة للحديث عن هذا الحال إلا انتهزها ، ففي
موضع آخر يصرح لنا بأنه لم يركن إلي تلك الحياة السلبية - التي ظنها البعض
زهدا - ولم ييأس إلا بعد محاولة مضمية للحصول علي الحياة ، لكن تلك المحاولة
أكدت له أنه لا يصلح لما يريد ، ... يقول :
" ما اعتزلت ، حتى جدت وهزلت ، فوجدتني لا أصلح لجد ولا هزل ،
فعدتها قنعت بالأزل"^(٥) .

(١) أبو العلاء المعري - رسائل أبي العلاء - تحقيق د. إحسان عباس دار الشروق ط١ /
١٩٨٢م / ١٥ / ص ١٠٤ .

(٢) شروح سقط الزند / ق ١ / ص ٥ السمر شجر شوكة كثير وليس له ثمر دبي من
قولنا أدبي الشجر أبناء إذا أورك

(٣) ق ٣ / ص ١١٤٩

(٤) رسائل أبي العلاء المعري / ص ٦٠ .

(٥) ابن العديم : الأوصاف والتحرى . من تعريف التمام بأبي العلاء جمع وتحقيق لجنة من
رجال وزارة المعارف العمومية وإشراف د طه حسين دار للكتب المصرية ١٩٤٤م /
ص ٥٧٠ .

وتلك الحية الصيقة يصفها أبو العلاء في الفصول والغايات^(١) بأنها لا تصلح لحيوان ولا تليق به، تاركاً لنا تقدير المدى الذي يعانیه إنسان مثله حين يعيشها، وتاركاً لنا تقدير حقّه في البكاء والضجيج المتولد من الحرمان^(٢)

يصف أبو العلاء حاله- الذي ظن زهداً - وصفا بارعاً في سقط الزند، فيصور نفسه قابعا فوق السحاب،... وتلك الجلسة وأن كانت متسامية نبيلة- تتيح له النظر من أعلي- وتبين لنا تقديره لذاته وإكباره لإمكاناتها الداخلية، إلا أنها جلسة تتأني به عن المطر والخير والخصوبة يقول المعري:

كأني حيث ينشأ الدجن تحتي فما أنا لا اطلّ، ولا أجاد^(٣)

من هذه المعاناة يتسلل الإيمان بالجبر إلي قلب أبي العلاء- لا إلي فكره- فيسوى بين مجيئه إلي الحياة نون اختيار أو رغبة، وبين حرمانه منها وعجزه فيها نون جريرة، يقول:

دنياي، فيك هوى نفسي ومهلكها والماء يودي بنفس الوارد الصادي
وما قصدتك مختاراً، فتعتلني فيك العوائل إن حاولت القصادي^(٤)

ولا ينكر أبو العلاء احساسه بالحرمان وطرده المستمر للحياة، كذلك لا ينكر محاولته وأد الحياة داخله،- وهي محاولة منطقية كنتيجة لصدها له-.. وواد الحياة ما هو إلا صراع للنفس ومجاهدتها بشتي الطرق،... يقول أبو العلاء:

"أسب نفسي، وتمسني، أريد الخير لا يجبني، أحب الدنيا كأنها تحبني والحرص يوضعني ويخبني، والفريزة عن الرشد تذبني... كم استتسر وأنا من البقاث" ^(٥)

وقد كان جهاد أبي العلاء الداخلي للحياة مدخله إلي ثنائية ميتافيزيقية أخرى،- هي ثنائية الروح والجسد- كما سنرى في الفصل القادم من هذه الدراسة وقد بلغ هذا الصراع حدة جعلت أبا العلاء يتمني أن ينقي عن نفسه أو

(١) أبو العلاء المعري للفصول والغايات. "في تمجيد الله والمواعظ" تحقيق محمود حسن زياتي للهيئة المصرية العامة للكتاب. سلسلة كتّاب التراث ١٩٧٧ ميلادي/ ص ٢٨٣

(٢) السابق / ص ١٦٦.

(٣) ق١ / ص ٢٨٥

(٤) ل١ / ص ٢٧٦

(٥) للفصول والغايات / ص ٢١٦

يستأصل منها ليهرب من ضغوطها. (١)

وتضطرب علاقة أبي العلاء بنفسه، فهي تتأرجح به بين السلام والقتال، فحين تمر عليه لحظة سكونية روحية- لعلها مسحة من نبل الأكم وعمق تجربته - يظن أنه قد بلغ ما يريد من هدأة الطمأنينة الروحية، والأعراض عن الحياة^(٢) بما لا يدع مجالاً للشكوى من العجز والمعاناة من ضيقه، ثم ما يلبث أن يتبين خدعة نفسه وهزيمته أمامها^(٣) وأنه إنما يحاول شيئاً محالاً لأنه يقاوم رغائبه الطبيعية، مخالفاً بذلك ناموس الكون الراسخ.

وأن تلمس أبي العلاء لهزيمته، ويقينه بأنها حتمية يرفعان نبرة الغضب في صوته حين يخاطب الحياة أو يتحدث عنها، ويرفعان أيضاً نبرة التمرد- نمرد العجز والحيرة، فيتظاهر بالقدرة على تطبيق الحياة داعياً كل إنسان إلى هذا المنهج، يقول:

" طلق دنياك فقد فركت، كم طلبت قبلك فما أتركت" (٤)

ويرسم للإنسان مسيرته في الحياة، مستمداً من علاقته الخاصة بها منهجاً، فيرى أن صلف الحياة لا يناسبه إلا صلف متبادل، وانفصال بلا رجعة، يقول:

تأملنا الزمان، فما وجدنا إلي طيب الحياة به سبيلا
ذر الدنيا، إذا لم تحظ منها وكن فيها كثيراً أو قليلاً^(٥)

إنها البدايات الناضجة للاغتراب، والمعنى المتميز للزهد: رهد العاجزين، المطرودين من الجنان:

تجربة الدنيا وأفعالها حثت أخا الزهد علي زهده
والقلب من أهوائه عابده ما يعبد الكافر من بعده^(٦)

وليس يستقيم في العقل أن يشكو الزاهد حرمانه، ويضيق بتبئله،

(١) السابق/ ص ٢٩.

(٢) ل٢/ ص ٦٧.

(٣) للفصول والغايات/ ص ٣٥٠.

(٤) للفصول والغايات/ ص ٢٦٨.

(٥) ديوان سقط للزند/ بيروت / ص ١٥٩.

(٦) شروح سقط للزند / ق٣/ ص ١٠١٤.

ويغضب من عوامل زهده، بل أن يصف نفسه شمعة تدوب من العوز والاستعال والموت، لكن المستقيم لنا- والذي وضع أبو العلاء أيدينا عليه وطمأننا إليه-، هو أن الواقع المؤلم المستفز المعجز، قد يدفع أحيانا إلي تفضيل الموت... خاصة إذا خير الإنسان بين الموت، وورود حياض خبيثة، فهو هنا يرد الموت لا للزهد في الطيبات، ولا استغراقا في الحياة الأخرى وطلبا للثابة، بل هربا مما هو أبغض من الموت،... وبذلك يضع أبو العلاء تصورا خاصا للحرمان ومعانيه المختلفة، يضع مفهومه للموت وللشر وللعجز، ويزيد علي ذلك بأن يحاول من واقع إحساسه بالحرمان أن يرى هذا الزهد الخاص مفيدا، إذ يريح صاحبه، فيحميه من الخوف والشققة علي النفيس من الأشياء^(١).

كما أنه يحدد لنا نوع الجهاد الذي اختاره من مواقع معاناته للحرمان، فهو قد أختار لقاء الموت وفضله على الحرمان، يقول.

إذا أنا لم اغن في لذة أسفت وضاق علي الفلك
ولست كموسي أهاب الحمام ولكن أود لقاء الملك^(٢)

ومن هنا انطلاق أبي العلاء إلي قضية الموت التي ستتعقد تأملاته لها بمرور الزمن.

ولعل وصف أبي العلاء للعلاقة بينه وبين الحياة- لعله وصف- يوضح الالتباس الذي شاب هذه العلاقة، وجعل ظاهرها شبيها بالزهد والالتصاف الإرادي عن الحياة.

بقي في جانب الزهد- الذي يتصل بمحنة فقد البصر في شعر أبي العلاء- أن نعرض لما نظنه عوامل دفعت إلي إصفاق صفة الزاهد بالمعري، ونعتقد أن للعامل الأول تفسير ما جاء في شعر أبي العلاء- وأدبه عامة- من تصوير صراعه من نفسه وجهاده لها، بأنه تبئل زاهد، أو نظرة شيخ مرید، لأن هذا النوع من شعر أبي العلاء وأدبه يغري بهذا التفسير، حيث غلبت عليه مسحة الأكم النبيل، والمناجاة العذبة، والضعف الإنساني- غلب عليه- الجانب الذكي من النفس الإنسانية: جانب الروح والمجاهدة، والأكم والعذاب، والمدافعة للفریزة،... وكل هذا وغيره لا اختلاف علي وجوده، بل الاختلاف علي دوافعه

(١) الفصول والغايات/ ص ٨٥

(٢) ل٢/ص ١٧٤

وقد مر القول بأنها دوافع العجز والخوف من التجربة والفشل والتعرض للسخرية.

العامل الثاني في اعتقادنا: شعر أبي العلاء الذي يتناول المجتمع بالنقد علي اختلاف طوائف هذا المجتمع، طارحا من خلال ذلك رؤى للإصلاح والتقييم والعلاج، وأبو العلاء في هذا اللون من شعره لا يترك حتى قادة الأمر دون تثريب، فهو يري غالبيتهم واقعة تحت سطوة الشهوات فيسميهم بالحراص^(١) في تمسكهم بالحياة،- وسنقف وبسة أطول مع موقفه من المجتمع فيما يلي ويغالي أبو العلاء حين يعمد إلي رسم منهج قويم للإنسان في الحياة، فهو يمدح المترهبين، ومن استغلوا بالعلم تاركين لهم الحياة^(٢) ويعتقد أن أسعد الناس، ذلك الذي ينأى بجبل عال ناء عن الحياة برمتها متزودا بالقليل في يده مما يعينه علي العيش^(٣) ويعتبر كذلك أن السعيد هو من غني عن البعيد^(٤)، أي عن أي أمنية، وأمن من ترقب الآمال والآتي، أما الدين، فهو " هجر اللذات عن يسر." في اعتقاد أبي العلاء، والتقوى هي الدرع المحصنة.^(٥)

ونعتقد أن هذا الجانب من شعر أبي العلاء الذي وجهه إلي المجتمع كان مدفوعا بعاملين أولهما: واقع أبي العلاء الشخصي الذي أسقطه- واعيا أو غير واع- علي عموم المجتمع، وأراد- مدفوعا برغبة في المساواة مع الناس- أن يشرك الجميع في حياة واحدة بدلا من تلك الهوة الواسعة بين حياة مثله، وحياة أناس غارقين في النعيم كأولئك الذين ينمهم في شعره،... أما العامل الثاني فهو الفساد الشديد الذي يطالع عين أبي العلاء أينما نظر في المجتمع، هذا الفساد المغالي فيه، المتفاقم، يحتاج إلي أداة جراحة لا إلي مسكنات، يحتاج إلي علاج مؤلم، وإلي دعوة إلي الإصلاح لا تقل عنه في حدتها وتطرفها، لذلك بدا له الإغراق في الشهوات محتاجا إلي النقيض، أو كما قال إلي حياة منعزلة في جبل

(١) ل٢/ص ٦٦.

(٢) ق٣/ص ٩٨٨-٩٨٩.

(٣) الفصول والغايات/ص ٢٧٣.

(٤) الفصول والغايات/ص ٣٠٧.

(٥) الفصول والغايات/ص ٣٠٧.

* من الآراء التي اطمانت إلي زهد أبي العلاء د صلاح رزق صاحب " نثر أبي العلاء" ص ٣٦، ١٠٤ وكذلك د حسن أبو شاويش صاحب شعر أبي العلاء في الدراسات الحديثة ص ٧٧، ٨٢، ٨٤ د كمال اليازجي صاحب أبو العلاء ولزومياته ص ٢٦٥، ٤٧٥

باء مع قليل من المؤمن، ودعوة الإصلاح هذه مستقاة من انفعاله بحالة الشخصي، ومن التراكمات النفسية التي عاناها من فساد المجتمع المحيط لكن هذه المواضيع من شعر أبي العلاء لا تصلح أبدا للقول بزهده، ولا يستقيم أن نلحق الزهد بتلك النفس التي رأيناها عابسة متمردة علي العجز، ناقمة علي حظها من الحياة، شارطة لوجودها الغيث أو الموت" فالزهد ينبغي أن يكون في جوهره المحافظة علي أشكال الشخصية علي صورتها... ومقاومتها سطوة العالم التي تريد تمزيق الشخصية واستعبادها، مقاومة إيجابية... الزهد هو كفاح الشخصية ضد العبودية... فهو مقبول بهذا المعني وحده... والزهد المرتبط بالشخصية هو المبدأ البطولي في الإلتصان... أما الزهد المستكين الخليل فهو مهانة وسببة... والشخصية تفرض الزهد القادر علي الاختيار والمقاومة... مقاومة شهوات النفس، وشهوات العالم".^(١)

فالمعني الوحيد للزهد الحقيقي هو الإيجابية والاختيار، وأيضا الرضا والقناعة، وأبو العلاء لم يعرف أيا من هذه المعاني، بل عرف زهدا خاصا به، هو صورة أخرى من الشقاء، وبديل للموت- المنتظر- بديل الحرمان ونتاجه في ذات الوقت، هو فعل ناتج من القهر أو رد فعل علي القهر، يقول:

ومن يبيل بالدنيا وسوء فعالها
فليس له إلا التعبد والنسك^(٢)

ندرك من كل هذا أن الألم كان المهيمن والحاكم لحياة أبي العلاء المعري وأنه كان ذا دور عظيم في سلوكه وفكره واتجاهاته النفسية، والألم حين يصطدم بإنسان ما فإنه يجعل منه أحد رجلين فهو " لا يمثل بالنسبة إلي الرجل الضعيف سوي " نفي" تام لكل قيمة، وعلي العكس من ذلك نجد أن الرجل الذي يقوى علي احتمال الألم لا يخرج من التجربة إلا أقوى صلابة، وأشد عزيمة، وأصلب عودا، ولا غرو، فإن " خبرة الألم" بالنسبة إليه- هي بمثابة فرصة مواتية لزيادة قدرته علي الاحتمال، وتنمية كيانه الأخلاقي، وتنقية معدنه الإنساني- وإذا كان للألم - في نظره - قيمة خلقية كبرى- فذلك لأن استجابته للمحن والتجارب هي علي النقيض تماما من استجابة الرجل الضعيف المسكين.

(١) فؤاد كامل / الشخصية بين الحرية والعبودية / د.لر المعارف. سلسلة "كتابك" رقم

١٤٠ / ١٩٨١م / ص ٤٢، ٤٣.

(٢) ل ٢ / ص ١٤٧

وأية ذلك أنه لا يستجيب لضربات الذر بالصراخ والعيول، بل هو يستجيب لها بردود أفعال إيجابية يؤكد فيها ذاته، ويعلن من خلالها رفضه لكل استسلام" (١)

وتد كان ألم أبي العلاء وراء نفيه لكثير من القيم - أو هكذا زعم لنفسه النفي هرباً من نوازع نفسه وزغائبها- فحاول تسفيه قيمة العلاقة بين الرجل والأنثى، وما يستتبع ذلك من نسل وتعمير لآتون، وأكد في شعره اعتقاده بخلو الإنسانية، جمعاء من مشاعر الصداقة والوفاء والحب، أنكر علي كل امرأة حصانتها وعلي كل وليد وقاءه لأبويه، واطمان إلي أن البشرية إنما يجمعها الجنس والتناحر والنحاح الشهوات والمكاند القذرة، وأن الأصل الإنساني فاسد والفروع توابع له في الفساد، أكد علي هشاشة الإنسان وضعفه أمام الوجود، وأنه مخلوق غاية في النقصان والسوء والتناهي، وارتاح كذلك إلي أن الغيب والعدم وانعدام الغاية، والجبرية- كما سرفي- قيم سلبية تهيم علي الوجود بأسره، ... وأبو العلاء في استيلائه لسلبات الألم التي نبت عنده هذه القيم لا يخرج عن الطبيعة الإنسانية، بل هو يؤكد ناموساً بعينه يرتبط بها، فإنه من " طبيعة الحياة البشرية- فيما يقول علماء النفس- أن تنمو وتتطور، وترقي محققة ما لديها من إمكانيات تلتبس الظهور، وشاعية في الوقت نفسه نحو التعبير عن ستي قوى الإنسان الحسية والانفعالية والجسمية والذهنية الح، ولكن قد يحدث في بعض الأحيان أن يلتقي هذا النزوع البشري نحو النمو والترقي ببعض اعوى الخارجية التي تحول دون انطلاقه، وعندئذ سرعان ما تستحيل طاقة البناء المعاقلة إلي طاقة حيوية هدامة، ولسنا نعني بالإعاقلة هنا مجرد عملية قنف أو تعطيل مؤقتة- بل نحن نعني بها عملية صد كامل تحول دون سمرار التعبير التأماني عن طاقات الإنسان الحركية والحسية والوجدانية والذهنية، مما قد يؤدي إلي انحباس الطاقة البناءة ويحولها إلي نوازع هدامة

" النزعة الهدامة" هي في الحقيقة مجرد أثر من أثار الحياة المعطلة المعاقلة، أعني تلك الحياة التي لم ينجح صاحبها في التعبير عن نفسه، وبالتالي نم يستطيع أن يكون منها بمثابة المنتج أو المستثمر أو المستفيد" (٢)

(١) د زكريا إبراهيم/ المشكلة للحقية/ مكتبة مصر ط١ / ١٩٦٦م/ص ٢٥١

(٢) المشكلة الخاقية /ص ٢٣٣

وللألم - رغم ذلك - إيجابيات في حياة أبي العلاء، منها أنه أحس به نظير الألم، والقراءة الواعية للتاريخ البشري، تلك القراءة التي كان دافعها الأساسي الانتناس والبحث عن هموم البشرية مؤسفة للنفس وتعزية لها، كما كان دافعها التقوق المعرفي والظهور على الأقران دعوا لشبهة العجز والنقص، وقد أصنع التأمل جزءا حيا من حياة أبي العلاء إلى حد أن نهمه لم يقف عند تحصيل العلوم الإنسانية^(١) بل امتد إلى تحصيل بواضع النفس الإنسانية الحية باحثا فيها عن ذاتها، وعن إجابات لما يورقه من أسئلة شتى خاصة الإنسان .

دفع الألم أبا العلاء إلى خصوصية الرؤية، ودفعه أيضا إلى روح نقدية فاحضة مبعثها المقارنة بين الذات والعالم الخارجي، والمتأمل للمعاني التي يثيرها أبو العلاء ويرتداها في شعره - وأدبه عامة - يجد أنها معان " يغلب عليها روح التجليل والرغبة في الاستنتاج " ^(٢)

الاغتراب الاجتماعي في شعر أبي العلاء:

لم يكن مجتمع أبي العلاء ليساعده على التكيف مع محنة بصره، أو على العمان الضيعي معها، لم يكن ليساعده على الخروج من ألم تجاربه الشحضية - بل كان يضيف إلى هذا الألم أصنافا أخرى منه عمقت بأس أبي العلاء من الحياة والأحياء في عمومهم وزادت من إصراره على الركور إلى تفسيره الاستلابي للحياة " وإذا كان التفسير النفسي للأدب يعتمد إلى حد كبير على التحليل النفسي للآثار الأدبية نفهم نفسية الأديب، ونواقعه التي تعكس الأديب، فإن التفسير الاجتماعي للظواهر الأدبية يقوم على توضيح العائفة بين الأديب وبينته، أو المجتمع الذي عاش فيه، فمن الحقائق المسلم بها - أن هناك علاقة بين الأديب ومجتمعه، وتؤثر هذه العلاقة بكل ما تسببه من عذابات وإيجابيات وتتاقصات في نفسية الأديب، وتبدو واضحة في عمله الأدبي - أنها فإن الأديب حين يتأثر بالمجتمع، ويتخذ لنفسه موقفا فكريا منه فإنه انعكس

(١) د/صلاح رزق نثر أبي العلاء "دراسة فنية لغوية" ص ١٠٠ - ١٠١ أو استأنه العربية / ص ٣٤

(٢) د صلاح رزق / نثر أبي العلاء "دراسة فنية لغوية" ص ١٠٠ - ١٠١ أو استأنه العربية / ص ٣٤

يعرف بأنه مريض في حصاره لا تعرف بانها مريضة " (١) والقدرة النقدية هذه يتبعها القدرة علي مواجهه الأزمه، واللامنتمون عامة" يصرحون بأن الطبيعة الإنسانية هي المريضه، وان اللامنتمى هو الإنسان الذي يواجه هذه الحقيقه المؤلمة" (٢)

إن أبا العلاء قد أنضجها ألم محتته- محنة البصر - وفرض عليه ميلا إلي استقطاب النقائص في كل شئ حوله طلبا للعزاء والتعويض، فإذا اجتمع هذا الميل الشخصي الحاد إلي ظروف اجتماعية تفرض التوجه إلي النقد اللاذع وتقرض النقاط النواقص- لأنها مليئة بها، أدرك أي عين ينظر بها أبو العلاء إلي مجتمعه

والمغرب في هذه الحالة يستغرق في نقد المجتمع، لأنه مراقب لذاته من خلاله، ومراقب للمجتمع من خلال ذاته وإذا " تناول الشاعر العوالم الخارجية، أو نظر إلي مجتمعه أو بينته نظرة ناقدة، فإن هذا العالم وما فيه يتحول لدي الشاعر إلي حالة نفسه " (٣)

وقد تناول أبو العلاء الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والأخلاقية لهذا المجتمع، ووصف شعره بالإلمام بهذه الأوضاع، يقول.
ومن تأمل أقواله رأي جملا
يظل فيهن سر القوم مشروحا (٤)

وكما سبق وذكرنا، فإننا نعتقد أن التحولات السياسية للمجتمع، والنظم السياسية له من أهم ما يتناول هذا المجتمع من خلاله، وأن الاغتراب السياسي أول أنواع الاغتراب وأهمها فيما يخص علاقة الفرد بالمجتمع فهو يؤدي إلي غيره من أنواع الاغتراب.

وقد كان القرن الرابع الهجري من أغني الفترات الدالة علي التحول والتوتر علي أكثر من صعيد سياسي واجتماعي " وفي مثل هذا التحول Transformation يصبح ضروريا أن يعيد الصمير الاجتماعي تقييم وتصنيف

(١) كولن ويلسون/ اللامنتمى بيروت ١٩٧٩م / ط ١٠ / ص ١٩

(٢) السابق / ص ١٩

(٣) د محمد زكي العثماني فلسفة الجمال في الفكر المعاصر دار النهضة العربية بيروت

١٩٨٠م / ص ٢٣٦

(٤) ل ١ / ص ٢١٦

الناس والأشياء بشكل جديد، ونظرا إلى أن المصادر الاجتماعية الجديدة التي تتبثق فجأة يعوزها التوازن، وتظل قيمتها مجبولة، الأمر الذي يجعل الضبط الاجتماعي مفقودا لبعض الوقت، وتصبح الحدود الفاصلة بين الإنصاف والاجحاف، كما تستحيل الرغبات التي تخضع عادة للرأي العام إلى حالة يغلب عليها الجموح وعدم خضوع الهدف والاتجاه ومع زيادة الرخاء تزداد الرغبات، ومع ضياع القيم التقليدية فإن المغنم الأكبر والأغنى تزداد تحفيزا للرغبات، مما يجعل السيطرة عليها أصعب في وقت تصبح الحاجة للسيطرة وال ضبط أكبر" (١)

في فترات التحول هذه يخضع المجتمع لأسس غير سليمة تسيره، ويقوم علي نظم مشبوهة، وأقيسة تحدها الغرائز والمصالح والتقلبات المزاجية لا العقل والمنطق، ويدرك المخترب وحده هذه الأعماق الأستنة، فهو محترق يراقب عن كثب وعن بعد في نفس الوقت" ويعرف ولسون الامتني بقوله: أنه الإنسان الذي يدرك ما تنهض عليه الإنسانية من أساس واه والذي يشعر بأن الاضطراب والفضوية هما أعمق تجذرا من النظام الذي يؤمن به قومه" (٢)

وقد عاصر أبو العلاء تفكك أمور الخلافة الإسلامية، وانفلات أزمئها منها، فقد عاصر حكم بني بويه أو " دولة بني بويه" كما يطلق عليها د. أحمد مختار العبادي (٣) وقد حكمت هذه الدولة بلاد فارس والعراق، وكان الخليفة المستكني أول من ولي الخلافة في ظلها سنة ٣٣٤هـ وقد عزلوه في بداية توليهم الحكم، تبعه للخليفة المطيع " ٣٣٤هـ - ٣٦٣هـ" الذي ولد أبو العلاء في نهاية حكمه سنة ٣٦٣هـ، ثم عاش أبو العلاء عهد كل من الخليفة الطائع " ٣٦٣هـ - ٣٨١هـ" فالخليفة القادر " ٣٨١هـ - ٤٢٢هـ" الذي انتهت في عهده دولة بني بويه، التي أن كانت بعيدة عن الشام فمن ناحية أخرى نرى أن الدولة البيزنطية قد قوى عودها واشتد بأسها في بعض البلاد الإسلامية الأخرى،... وقد توجهت الحركة البيزنطية إلى البلاد الإسلامية مدفوعة بحلم استرجاع بيت

(١) د. قيس النوري. الاغتراب مصطلحا ومفهوما وواقعا. مجلة عالم الفكر / المجلد العاشر.

للعدد الأول. ١٩٧٩م/ص ٢٦.

(٢) للامتني. مقدمة للنشر للطبعة العاشرة/ ص ٥.

(٣) د. أحمد مختار العبادي، في التاريخ السياسي والفاطمي، مؤسسة شهاب للجامعة ١٩٨٢م، ص ١٦٦.

للمقدس واستلاب مكة من أيدي المسلمين كرد فعل علي استيلاء المسلمين علي الأماكن المقدسة بفلسطين" وهناك من يذهب لفوفن بأن يعصر أباطرتهم كان يهدف للاستيلاء علي منشروعاتهم الحربية الجريئة علي حساب القوات الإسلامية المبعثرة في بلاد الشام وشمالى العراق، فاستطاع " نقتور كاس " طرد العرب سنة ٩٦٤م - ٣٥٤هـ من جزيرة قريطش، كما استولى علي عين رربة وسيس من أرض فيلقية وغيثاب ومنبج من بلاد الشام." (١)

وتحتفظ بعض المصادر الأجنبية والعربية برسائل التهديد التي كان يرسلها أباطرة بيزنطية إلي الخلفاء العباسيين، وتحمل هذه الرسائل ملامح القوة والبأس والثقة في الجانب البيزنطي، بينما تجسد ضعف الخلفاء المسلمين وتخاذل الخلافة عامة أمامها، هذا التخاذل الذي دفع أحد القواد المسلمين المنتصرين علي سيف الدولة - دفعه - إلي أن يستجد بالقوة البيزنطية المحاوره دافعا لها الجزية معترفا بتبعيته السياسية لها (٢) كذلك بلغت المهانة بالخلافة الحد الذي كان كثير من ولايتها يريقون ماء وحوهم علي أقدام بيزنطة طلبا للعفو والرضا والمال، وقد احتفظ التاريخ ببعض أسماهم، كالأفئكين الذي مارس ألعاب المهرج أمام " حنا السُميشق " طمعا في أن يسمح له بالاستمرار في ولايته وجمع الخراج منها (٣) وكان عام ٣٦٥هـ - ٩٧٥م شاهدا علي استفحال النفوذ البيزنطي " علي طول البلاد الشامية، فدفعت له حمص الجزية، واستسلمت بعلبك." (٤)

وبلغ تفكك الخلافة أوجه عام ٩٩٥م - ٣٨٥هـ وكان أبو العلاء قد بلغ الثانية والعشرين من عمره وقتذاك - فقد توقفت حركة الفتح البيزنطية حينما اصطدمت بقوة انبولة الفاطمية الوليدة (٥) وسرعان ما تقابلت القوتان صراعا علي حلب التي استولى عليها الفاطميون، لكن البيزنطيين سارعوا بالاستيلاء علي حمص وشيزر. (٦)

واضطر بأسيل الثاني - القائد البيزنطي - إلي عقد معاهدة مع الحاكم

(١) حسن حبش الحرب الصليبية الأولى ط ١/ دار الفكر للعربي ١٩٤٧م/ص ٢٣

(٢) حسن حبش الحرب الصليبية الأولى ط ١/ص ٢٤

(٣) السابق/ص ٢٥

(٤) السابق/ص ٢٥

(٥) السابق/ص ٢٥

(٦) السابق/ص ٢٥

بأمر الله الفاطمي^(١) حين رأي اشتداد نفوذ الدولة العاطمية في بلاد الشام- باستثناء انطاكية- عام ١٠٠١م- ٣٩١هـ وقد أوشك المعري علي أتمام العقد الثالث من عمره- لكن النفوذ الفاطمي أصيب بنكسة عارضة سنة ١٠٢٣م- ٤١٤هـ وكان عمر المعري إحدى وخمسين عاما حين استقلت أسرة صالح بن مرداس بأمر حلب^(٢)... وثابت في تاريخ حياة أبي العلاء قصته مع صالح بن مرداس الذي حاصر معرة النعمان بعد حادثة بين أهلها وجنوده الذين أشاعوا الاضطراب والفوضى فيها، وشائع أيضا قبوله شفاة المعري لها.^(٣)

أما عام ١٠٢٨م - ٤٢١هـ وكان عمر المعري ثمانية وستين عاما فقد ظهر عنصر السلاجقة في الدولة العباسية^(٤) الذي وفد من سهول أرا ل علي العراق، وقد تقاومت قوة السلاجقة حتى استطاعوا الاستيلاء علي القدس والرملة من الفاطميين، واصطنع زعيمهم طغرل بك سياسة المهادنة مع الفاطميين، واستمرت الحروب بين السلاجقة والبيزنطيين محطمة قوى الخلافة الإسلامية التي تواتر عليها العنصر الأجنبي في مختلف ألوانه إلي أن سقطت الخلافة العباسية تماما علي أيدي التتار عام ٦٥٦هـ.

أن هذه الأحداث مجتمعة تؤكد أن الخلافة العربية الأصيلة لم تعرف طريقها إلي هذا المجتمع- إلا في النادر من الزمن- مما خلق لونا من ألوان الاغتراب السياسي في المجتمع الإسلامي وقتئذ، هو الاغتراب عن هذه الخلافة والافتصال عنها، وافتقادها، واعتياد الوقوع تحت سيطرة العنصر الأجنبي وعبثه وهمجيته،... لذلك قر في بعض النفوس الشعور بالصغر والذلة والضالة والاضطراب والخوف والتهديد الدائمين، وقرت في نفوس البعض الأخر معاني اليأس للمطلق من كل قيمة، والإيمان المطلق بلا جدوى كل

(١) السابق/ ص ٢٦.

(٢) السابق/ ص ٢٦- ٢٧.

(٣) من دلائل اضطراب الواقع السياسي في ظل الدولة المرديسية ما حكاه بركلمان عن ابن سنان الخفاجي- تلميذ المعري- في ترجمته له من أنه " كان له أيضا دور سياسي في فوضى الصراع علي السلطة في حلب في منتصف ق ٥ هـ ففي المحرم من سنة ٤٥٣هـ ذهب إلي القسطنطينية مبعوثا من حلب وعندما تغلب محمود بن نصر بن مرداس علي حلب عصر الخفاجي بقلمه عزاز وبعد ذلك قتله محمود بالسهم في عام ٤٦٦هـ عن طريق وزيره الذي كان علي صلة صداقة بالخفاجي " تاريخ الأدب العربي ج ٥/ ص ٤٦.

(٤) الحرب الصليبية الأولى / ص ٢٧.

إصلاح، - بل- لا جنوى كل شى

لم يكن هذا اللون من الاغتراب السياسي وحده في مجتمع أبي العلاء، بل لقد أدرك المجتمع لونا آخر هو الانفصال عن الحاكم، افتقاد القدوة الراحية أو النموذج الصالح لولي الأمر.

إن أبسط مفهوم للسياسة وأدق تعريف لها هي أنها العلاقة الإنسانية بين الحاكم والمحكوم، بما يحافظ على إنسانية كل منهما ويكفل له وجودا كريما،... وقد انتقي هذا المعنى عن مجتمع أبي العلاء، ويؤكد شعره هذا - فنرى ولاية الأمر يرعون مصالحهم ويشبعون رغباتهم وشهواتهم، ويأمنون حياتهم وحياة نويهم تحسبا لأي انقلاب أو غزو أو أي شر متوقع وسط هذا الضجيج من العناصر الأجنبية المختلطة، ووسط فرق ومذاهب داخل المجتمع، فضلا عن الثورات والفتن الداخلية، وبذلك انفتحت العلاقة الإنسانية بين الحاكم والمحكوم، لنرى الأول يستبد بالأمر ويمتلك سلطات مطلقة حتى فيما لا يعنيه، ونجد الثاني- المحكوم- محروما من كافة حقوقه السياسية حتى الضروري منها، يقول أبو العلاء.

فأميرهم نال الإمارة بالجننا وتقيهم بصلاته متصيد (١)

بل أن حركات الإصلاح الداخلية لم تسلم من الزيف والسعي للمنفعة الخاصة، لم تسلم من الشبهات والظنون وكان قاداتها أخس من هؤلاء الحكام الظالمين، لأنهم تاجروا بأحلام الناس وسعيهم وراء الحرية والحق، منتهزين نقطة ضعف الناس ليجمعوا من ورائها ثروات أو يفوزا بمقعد ما، ويصنفهم أبو العلاء بقوله:

ب لجذب الدنيا إلي الرؤساء	إنما هذه المذاهب أسبا
ن لدمع الشيماء والخنساء	غرض القوم متعة لا يرقو
بالبصرة والقرمطى بالأحساء (٢)	كالذي قام يجمع الزنج

لقد عاصر أبو العلاء "الحكم الفردي في احط ادواره، وأضعف أحواله،

(١) ل ١/ص ٢٤٩

(٢) ل ١/ص ٥٦

ففقر منه أشد الفقر، لما نجم عنه من الكوارث واذ نالم، دعا الحكام إلي الرفق بالرعية، بل طالب بما للرعية من حق علي الحاكم" (١)

عاصر أبو العلاء التفكك السياسي الذي أحدثه صراع الحمدانيين والفاطميين بالشام، عاصر الحكم المطلق للفرد، والثورات المزيفة، وتبعثر الأمصار العربية كافة، فرأي بعينه تمزق الكيان العربي والمجتمع الإسلامي، واختفاء البطل الثوري من ساحة الخلافة، البطل ذي الرؤية الثاقبة والتخطيط السليم والقدرة علي الثورة الصحيحة، وقد دفع كل هذا أبا العلاء إلي رؤية سوداء لعموم المجتمع الإسلامي، فالساسة الذين ينمهم أنن هم كل أولئك الظالمين، يقول:

ساس الأمام شياطين مسلطة	في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خصص الناس كلهم	أن بات يشرب خمرا وهو مبطان
تشابه للنجر، فالرومي منطقته	كمنطق العرب، والطائي مرطاني ^(٢)

ولابد أن يتبع هذا الواقع السياسي المتدهرئ خلل في الواقع الاقتصادي وشيوع تنوعات طبقية غير منظمة، فأولياء الأمر في شغل بأنفسهم عن العدالة- التي لا تتجزأ والتي أن اختل ميزانها في ميدان كانت مختلفة في الميادين الأخرى،- وفي ظل الاضطراب يستفحل للتفاوت الطبقي ويبدو المجتمع أشبه بمسرح هزلي ترتكن فيه بعض الشخصوس علي قوى أخرى بعيدا عن أرائتها وفعالها في الحياة، وهنا يكون إيمان من ضاعت حقوقهم بكلمة الحظ والصدفة، ويلجأون إلي كل خرافة ممكنة تعدهم بالسعادة والأحلام بينما يلجأ البعض الآخر إلي الانطواء داخل ذاته للمشومة، وينضوي صنف ثالث تحت ما هو ساند- أيا كان- محترفا بمشروعيته، طالبا منه النجاة والخير!! وكل هذه الطوائف لم تنج من الانتحار المعنوي... في مجتمع كهذا يشكل الحاكم ومن والاه طبقة عليا في مقابل البسطاء من الناس ومن يدينون بالقيم من أصحاب الدين والعلم، وبهذا يرى أبو العلاء الواقع قد أنس بحق علي انعدام المقاييس، يقول:

(١) د. كمال اليازجي. أبو العلاء ولزومياته دار الجبل. بيروت. لبنان. ط١/١٩٨٨م/ص

لقد جاعنا هذا الشتاء وتحتَه
وقد يرزق المجدود أقوات أمة
فقير معرَى ، أو أمير متوج
ويحرم قوتًا واحد وهو أحوج
فقد عيف للشرب الإثناء المعوج^(١)

ويرى أبو العلاء أن انعدام المقاييس والخلل في الواقع الاقتصادي وفي الواقع ككل- يرى هذا كله- عجزاً معنوياً يضاف إلي عجزه الجسدي ويهدد سعيه في الحياة بالفشل، ففي ظل هذا المجتمع لا يتحكم المنطق في حياة الناس، يقول:
قد يدأب الرجل المنجوز مجتهداً
في رزقٍ آخر، لم يلم به النجد^(٢)

لذلك يلقي أبو العلاء جزءاً كبيراً من حرمانه علي عاتق هذا المجتمع، الذي تكس في ضميره الخداع والظلم والتحايل القذر علي المكاسب، دون استحقاق:

شغل السعادة عنك أهل ممالك
رقدوا، ولم ترقد، ونالوا ما
رزقوا الذي حرم الكرام وسادوا
وعجزت عنه، وللكيان فساد
ضمن القواد يساء حين يساء
أرواحهم فكانها أجساد
وسد، وبت وما لديك وساد^(٣)
ابتغوا
ومن المعاشر من يظبل كأنه
خمدت خواطر منهم وتكاثفت
مهدت لهم فرش، ويات لديهم

في مثل هذا المجتمع يرى المعري الأساد ترهب صاحب الحظ^(٤)، ويرى الخمول درعا حافظة لصاحبها^(٥) أما صاحب الحق فهو لبله يجهد نفسه في صراع هذا العالم الممتزج^(٦) أما المغترب فينقد كل ثقة له في هذا العالم ويهزأ من كل قيمة فيه:

(١) ل/١ ص ١٩١

(٢) ل/١ ص ٢٣٥

(٣) ل/١ ص ٢٥٠، ٢٥١

(٤) ل/١ ص ٢٥٠، ٢٥١

(٥) ل/١ ص ٢٦٣

(٦) ل/١ ص ٢٠٨

ويضع أبو العلاء أيدينا علي عامل من عوامل التزامه بما لا يلزم في الحياة- ومن ثم في الشعر- حين يقول:

ووجدت نفس الحر تجعل كفته صفراء، وتلزمه بما لا يلزم^(٢)

وبذلك هو ينفي أيضا مقولة زهد، مؤكدا أن معاناته نتاج عجز ذاتي وعجز خارجي،- هو عجز المجتمع- عن أن يكون سويا صحيح البنية،... لكن هذا الحر الذي أشار إليه أبو العلاء لا يسلم من معاناة أخرى هي لوم المجتمع له وازدراؤه لسلوكه^(٣) فهو يواجه أكثر من صراع مع ذاته وأكثر من صراع مع المجتمع.

ولم يكتف أبو العلاء بالشكوى،- أو لعله لم يبدأ بها قبل أن يحاول إيجابية ما،- فقد طرح في شعره بعض الحلول وكلها لا تخرج عن آهاب الدين الحنيف الذي تكاملت فيه طرق المعاملات بين الناس، واحتوى نظاما مثاليا عادلا لتوزيع الأموال بين أفراد هذا المجتمع، فعرض أبو العلاء ارتياحه لهذا النظام وشوقه التي اتباع فرض الزكاة الإسلامي بصدق وإصرار، يقول:

وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم لما رأيت بني الأيام شاكين^(٤)

ولا نعتقد أن أبا العلاء الوحيد الذي طرح حولا إيجابية لمثل هذه القضايا، ولا نحسب أن المجتمع قد استجاب إلي مثل هذه النداءات الصادقة، لأن هناك أناسا يضيرهم كل الضير أن يتمثلوا العدل، لأنه أن طبق حرمهم من الترف والجاه وتصعير الخد،... فإذا كان الاغتراب الاقتصادي عند ماركس يعني اغتراب العامل عن إنتاجه الذي لا ينعم به، ويعني أيضا اغترابه عن صاحب المال للهوة التي بينهما- إذا كان هذا هو معنى الاغتراب الاقتصادي،- فهو معني موجود في عصر أبي العلاء لأن عامة الناس وبسطاءهم لم يكونوا متمتعين بما يتمتع به سواهم مما أوجد تفاوتًا طبقيًا، وأغار بعض الصدور علي بعض، وهذا الواقع الشانه من دواعي اشتها الموت عند أبي العلاء- والتي

(١) ل/١ ص ٢٥٢ ..

(٢) ل/٢ ص ٣٢٤ .

(٣) ل/٢ ص ٤١٤ .

(٤) شروح سقط للزند / ق ٢ / ص ٥٢٨

سنناقشها في حينها،- كما يقول.

فيا موت ذر أن الحياة نَميمة ويا نفس جدي إن دهرك هازل^(١)

اضطراب الحياة الدينية في عصر أبي العلاء:

أن هذا الاضطراب عامل من عوامل إفساد الحياة السياسية وخلل للواقع الاقتصادي، كما أنه - أي هذا الاضطراب- نتيجة لهما معا- في ذات الوقت،- فاضطراب الحياة الدينية يعني اضطراب كثير من القيم والمفاهيم الدينية، وهذا الاضطراب يستتبع ضعف أثر العقاب والثواب في كثير من النفوس، بل يستتبع قابلية هذه النفوس للتحلل والإفساد اعتمادا على الخلط الذي اجتاحت الحياة، وطمس معالم الحقائق فيها، كما أن الحياة للشاقة والابتلاءات العنيفة تدفع بعض النفوس إلى هجر العقيدة ظنا منها أنها تتجو حين تتسع رقعة احتيالها على الرزق، بما لا يتفق مع جوهر الدين.

وقد تناول أبو العلاء الحياة الدينية في عصره بنقد عنيف أوغر عليه نفوس قومه وجلب عليه ظنونا - سنتناولها بعد قليل- ولم ينج من نقده أحد من الأفراد أو المذاهب والفرق أو أصحاب الديانات المختلفة، فحين نظر إلى الأفراد في عمومهم وإلى فهمهم للدين، رأى أن الدين عندهم لا يعني سوى قضاء ساعة من ساعات الحياة يعهد إليها بغسل الخطايا ويعتمد عليها في ذلك، مع استمرار الحياة الماجنة، بلا حرج يقول:

خوى دن شرب فاستجابوا إلي التقى وعيسهم نحو الطوائف خوادي^(٢)

فالدين ليس إلا ممارسة عابرة عند استعصاء المجون عند هؤلاء، أو ملجأ لقضاء الفراغ، أن مثل هذه النفوس يصفها أبو العلاء بأنها كالحجارة^(٣) لأنها ليست جاهلة بأثمها، بل هي عالمة به تمام العلم مع عدم تهيبها له ، يقول:

(١) ق/٢/ص ٥٢٨

(٢) ل/١/ص ٢٦٨

(٣) ل/١/ص ١٥١، ١٥٢

ما للأنام، وجدتهم من جهلهم
فمجانل وضع الجدال وقد دري
بالذين أشباه النعام أو النعم
أن الحقيقة فيه ليس كما رعم^(١)

والمعترب يصعب عليه أن يجد لغة تفاهم مشتركة مع أمثالهم، بل أن
رفضه للواقع الذي يضمهما معاً، يبدو حتى في اجتماعه بهم واستماعه إلي
ترهاتهم، بل أن هذا الاجتماع ليوسع من دائرة الانفصال بينهما، ويعظم من
فزع أبي العلاء منهم، يقول:

وما قبلت نفسي من الخير لفظة
تفزع أعرابية أن جرى لها
وإن طال ما فاهت به الخطباء
نواعب يستعرضنها وظباء^(٢)

والدين في مثل هذا المجتمع متجر ميت لا يرجو منه أحد كسباً ولا يلقي
اهتماماً ورواجاً:

والدين متجر ميت فلذاك لا
تلفيه في الأحياء إلا كاسدا^(٣)

في هذا الواقع لا يستغرب أن يلحد السيف بعد التوحيد^(٤) لا يستغرب
هذا فأمام القوم ذاته- كرمز يشمل كل المجتمع- يتكتم أمر الفاسدين ويتواطأ
معهم ويبارك سعيهم:

علم الأمام - ولا أقول بظنة
أن الدعاة بسعيها تتكسب^(٥)

فالأمام مثل السادة والتادة لا يولي أمراً ما اهتماماً إلا إذا اتصل من
قريب أو بعيد بمقعد حكمه،... ويعمم أبو العلاء هنا الحكم علي الجميع، فلا
يستثنى رجلاً واحداً من رجال الدين في عصره، بل ينفي النسك والتقوى عن
الجميع، مؤكداً أن الأطماع^(٦) وأن السباحة في الخنى هي حياتهم^(٧) وأن

(١) ل/٢ ص ٢٢١

(٢) ل/١ ص ٣٦

(٣) ل/١ ص ٢٥٥

(٤) ل/١ ص ٢٧٨

(٥) ل/١ ص ٨٥

(٦) ل/١ ص ٨٦ وذات المعنى في زجر للنايح ص ١٦

(٧) ل/١ ص ٢١٦ وذات المعنى في ل/١ ص ٤٠١ وفي زجر للنايح ١٣٩، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦

الاحتياط علي أخذ الاتاوات هو ما يسعون إليه^(١)

الدين في مجتمع أبي العلاء- كما يقول في شعره- ليس هو هذه العقيدة التي تملا الكيان الإنساني ثقة وسكينة وانتماء، بل هو أرث متقل تترجمه الطقوس المادية الخارجية فقط، أما الجوهر فملغي، أنه دين يتوجه إليه بلا قصد أو إخلاص! يقول أبو العلاء، ناسبا إلي المجتمع لونا من الجاهلية أو صورة من صورها:

عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا وأورثوا الدين تقليدا كما وجدوا

فما يراعون ما قالوا وما سمعوا ولا يبالون من غي لمن سجدوا^(٢)

ويزيد أبو العلاء مرارة، تناحر الفرق الفاسدة المغرضة، وأصحاب الأفكار السانجة الواقفين عند القضايا التي لا تغني ولا تسمن من جوع، ولا تتعلق بجوهر الدين أو بعلاقة الإنسان بخالقه، فيتوجه أبو العلاء بالسخرية إلي القائلين بالتناسخ^(٣) والمعظلة^(٤) والملاحدة المتسترين بالتشيع وغيره^(٥)... ويبدو أن الإلحاد في عصر أبي العلاء لم يكن مستغربا مما دعاه إلي الإلحاد علي محاورة الملاحدة في شعره والتوجه إليهم بالنصح والجدال.^(٦)

كذلك نرى في هذا الشعر وصفا لبعض الدعوات الإباحية التي تحلل كل المحرمات^(٧) غير عابئة بنواهي للدين وأوامره، أما الطامعون في كل عرض وشهوة، فما أكثر وجودهم في شعر أبي العلاء.

وقد لفتت كثرة الزنادقة أيضا نظر أبي العلاء، ورأهم عنوانا لمجتمعه الذي يلخص بسيرته المعني اللغوي للزندقة: التظاهر بالولاء لشيء واضمار الولاء لنقيضه، يقول أبو العلاء:

تستروا بأمور في ديانتهم وإنما دينهم دين الزناديق

(١) ل/١ ص ١٧٥

(٢) ل/١ ص ٢٣٥

(٣) ل/١ ص ٢٢٥

(٤) ل/١ ص ٢٢٦

(٥) ل/٢ ص ٩٧

(٦) ل/١ ص ٢٥٤

(٧) ل/١ ص ٤٢٧

نكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أربي بإكراه وتصديق^(١)

بهذه الدقة اطلعنا أبو العلاء- لا علي اهتمامه بالحياة الدينية لمجتمعه فقط- بل اطلعنا أيضا علي بعض عوامل اغترابه عن هذا المجتمع، لكن تناوله الشعري لهذه الحياة الدينية- وغيرها من الجوانب الأخرى للحياة الاجتماعية في عصره- كان يلقي الضوء علي أصحاب الأهداف القنطرة، والنفوس المعوجة، وهؤلاء لا يرغبون في مثل لسان أبي العلاء الحرى، ولا يعقل أن يتركوا هذا اللسان ظليقا، فأنهم أبو العلاء بالزندقة، واتخذت أشياء من سيرته في الحياة دليلا علي هذه الزندقة، ككرامته لأكل اللحوم وكل ما هو حي من الطير والحيوان وما ينتج عنهما، كذلك كان ما رأيناه قبل ذلك من نظرات خاصة دقيقة إلي بعض أمور الدين كان من أدلة قانحة في عقيدته.

وقضية اتهام أبي العلاء بالزندقة ليس مما يهمننا في هذه الدراسة، ولسنا نهتم بتبرنته أو أدانته من خلالها، لكنها تتصل بشكل قوى باغترابه الاجتماعي وتبسط أمامنا مدى الفجوة بينه وهذا المجتمع،... أن شعر أبي العلاء بصفة خاصة يؤكد لنا امتلاكه لعقيدة سليمة وإيمان حقيقي، وتسليم صحيح بأركان الإسلام، يقول المعري:

أثبت لي خالقا حكيما وأست من معشر نفاه^(٢)

نطالع في شعره الحديث عن مادية الله تعالى^(٣) وعظمته، ووجوده المهيم^(٤) وقدرته علي المنع والعطاء.^(٥)

ومفهوم الإيمان عند أبي العلاء سليم، إذ أنه في أساسه تقي وتأديب للنفوس^(٦) حتى يصل الإنسان إلي المرتبة التي وصل إليها أبو العلاء حين رأي أن الصلاة أجل ما يملك في الحياة^(٧) وأن القرآن شفاء حقيقي للنفوس المتعبة^(٨)

(١) ل٢/ص ١٤١

(٢) ل١/ص ١٧٥

(٣) ل١/ص ٩٤

(٤) ل١/ص ٥٣

(٥) ل١/ص ١٥١

(٦) ل١/ص ١٣٣

(٧) ل١/ص ١٧٣

(٨) ل٢/ص ١٥٨

وأمر الحياة السليمة هي حب الحياة الدنيا وحب الحياة الآخرة والعمل لكليهما معا^(١) عملاً بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا الإيمان لا يمنع من خشية ملاقاته الله^(٢) ولا يدفع بالمؤمن إلى التردد الراسحة حسس ما عمل وحسن الجزاء الذي ينتظره بما قد يدفعه إلى التواكل والغرور، بل هو دافع إلى مزيد من الخشية والترقب، فيقول المعري:

إذا راكب نالت به الشاونا فاعة مما أينقي إلا الظوالع والحسرى
وان أعف بعد الموت مما يربيني فما حظي الأذى ولا يدي الخسرى^(٣)

وهذا الإيمان يدفع إلى نوع راق من الاطمئنان، هو الاطمئنان إلى عدل الله، مع السعي إلى رضائه:

ليفعل الدهر ما يهيم به إن ظنوني بخالقي حسنة^(٤)

نظر أبو العلاء إلى الإسلام نظرة إلى دين سمح متسع كريم، دين تحافظ قوانينه على كرامة الإنسان وإرادته، وتحافظ على حياته أيضاً، فهو دين لا يدعو إلى التهلكة، حتى ولو كان المؤدى إليها الإفراط في العبادة، دين يرى العمل عبادة، ويرى تعذيب النفس من الكبائر العظمي، لذلك لم يتورع أبو العلاء عن أن يدلي ببعض الآراء الجريئة في أمور الدين منطلقاً من هذا المفهوم له، فأنكر حج المرأة في ظل مجتمعه الذي تملؤه عصابات الطرق متعرضة للحجاج بالقتل والسرقة وسبي النساء وإضاعة كرامتهن^(٥) أنكر هذا الحج لأن الحج في الإسلام مشروط بالاستطاعة، وهذه المخاطر تلغي الاستطاعة وتجعل من هذه الفريضة طريقاً للانتحار أو العذاب وهو ما ينتقي عن طبيعة الهدف السامي لفروض الدين، كذلك سخر أبو العلاء ممن لا يقيمون جوهر الدين ويظنون أنهم بمنجى من الحساب حين يقيمون شعائره الظاهرية كتقبيل الحجر الأسود وغير ذلك^(٦)

وقد اتهم المعري بإنكار النبوات بينما يمتلئ شعره بمواضع يعنف فيها

(١) ل/٢ ص ١٤٢

(٢) ل/١ ص ١٦٩

(٣) ل/١ ص ٦٩

(٤) ل/٢ ص ٣٦٧

(٥) ل/٢ ص ٣٢٥

(٦) زجر للنابح / ص ٢٧

من أنكرها، ويوصي بقتلهم علانية لأنهم مفسدون في الأرض^(١) ويتوجه إلي الأنبياء بالمديح والإجلال والإعزاز وإيمان الواجب علي كل مسلم^(٢) أما اسم عليه السلام فقد تعرض المعري لقصة عصيانه لربه- وهي واردة في القرآن- واتخذها مدخلا فنيا يعرض من خلاله رأيه في جيلة الناس المنطوية علي العصيان والإفساد والطمع في الحياة^(٣) وحين تعرض للخبيات لزم أبو العلاء حدود الإنسان المؤمن بالله المصدق لما يقول. ويعد^(٤) محذرا من البحث الجدلي في أمور الغيب لأنه جنون وكفر لا يؤديان إلي يقين^(٥) لو سكينه.

وإذا صح في العقل أن يكون مجتمع أبي العلاء قد جهل مثل هذه المواضيع من شعر أبي العلاء التي تصور عقيدته الدينية السليمة- إذا صح هذا- فإنه لا يصح في العقل أن يكون قد جهل بعض مؤلفاته التي وظفت لقضايا الدين مباشرة، فقد كتب أبو العلاء في القراءات: "تظلم السور"^(٦) و"عظات السور"^(٧)، وألف في الخطب "خطب القرآن" و"خطب السنة" وسيف الخطبة^(٨) ونظم في هذا الأغراض شعرا مثل قصائد "استغفر واستغفرى" وملقي السبيل الذي جمع فيه بين الشعر والنثر.

والذي يعنينا من كل هذا ليس عقيدة أبي العلاء في حد ذاتها - فمجالها ليس في هذه الدراسة - ولكن يحنينا ارتباط هذه القضية بعلاقة المعري بمجتمعه ، أن مثل هذه العلاقة تؤكد انعدام الثقة بين الطرفين، وانعدام التوجه الوجداني والفهم المتبادل، وقد تزايدت حدة الانفصال في نفس أبي العلاء إلي حد أنه شعر بأنه مستهدف من المجتمع مهدد فيه بخطر التلوث أو التلوث باللون السائد، مهدد بفقد الماهية، يقول:

(١) ل/١ ص ٨٠ - ٨١.

(٢) ل/٢ ص ٤٥.

(٣) زجر النابج. ص ٩٩ إلي ص ١٠٢.

(٤) ل/٢ ص ٣٧٦.

(٥) زجر النابج/ ص ٤٧، ٩٨، ١٢٠.

(٦) ابن العديم. الأنصاف وللتحرى من تعريف القدماء بأبي العلاء/ ص ٥٣١.

(٧) السابق/ ص ٥٣١.

(٨) السابق / ص ٥٢٩، ٥٣٠.

وأردتموني أن أكون منلساً هيهات غيرى اثر التنبؤ^(١)

وقد أغلق أبو العلاء علي المجتمع باب الأمل في التوبة، وادعاء الفره علي النفس وشهواتها، حين عرض في بيت واحد مفهومه الخاص للدين، يقول

هل الدين إلا كاعب دون وصلها حجاب ومهر معوز وحياء^(٢)

كذلك حدد مذهبه وأكد أن دينه هو دين الفطرة السليمة، والتره عن كل

شبهة:

وأن سألوا عن مذهبي فهو خشية من الله لا طوقاً أبث ولا جبراً^(٣)

وكان هذا الواقع الديني المتهرى دافعا إلي العزلة النفسية والمادية، حيث تكون الطهارة هي التوجه إلي الداخل، هي الانطواء علي النفس واعتزال المجتمع، ويكون الدفاء هو الاتصال، أما الآخرون فهم الوحشة والاعتراب والماهية المشوهة، يقول المعري:

إذا حضرت عندي الجماعة أوحشت فما وحدثني إلا صحيفة ايناسي
طهارة منلي في التباعد عنكم وقربكم يجنى همومي وأنداسي^(٤)

الحياة العقلية غير المشبعة عامل قوي للاختراب الاجتماعي:

أن مجتمع القرن الرابع الهجري كان يزخر بكل ألوان العلوم والفلسفات والأداب الإنسانية المختلفة، وسائر أنواع المعرفة، فقد اشتهر هذا العصر - بعامه - بحياة علمية واسعة أوجدت عقولا فذة في مجالات مختلفة، لكن أبا العلاء لم ير في كل هذا ما يشبع عقله وفكره لأنه لم يخرج منه بما ينتظم المجتمع كله في طياته وبما يصلح الخلل القائم، كانت الحريات العقلية في الغالب مشروطة بأهواء الحكم وقيود المعيشة.

وجد أبو العلاء بغيته فيما أتبع له من علوم العصر وثقافته، فنهل من

(١) ل/٢ ص ٣٢

(٢) ل/١ ص ٣٦

(٣) ل/١ ص ٣٤٨

(٤) ل/٢ ص ٣٥

دروس الجغرافيا والتاريخ والفقه وعلوم النحو واللغة والاداب والقراءات والسير والفسافات المختلفة،... وغير ذلك مما رخر به عصره، وكان عتله نتاج هذه العلوم مضافة إلى طبيعة حياته الخاصة ونوع نظريته إليها، وهدفه منها، وقد أعانه هذا النتاج الثقافي علي أن ينظر في التاريخ البشري مستخرجا منه ما شاء من دلائل تفسر طبيعة الإنسان تفسيرا يتفق وحياته النفسية، تلك الحياة التي خلقتها محنة فقد البصر.

رأي أبو العلاء الحياة الإنسانية كلها مثيرة للتساؤل والبحث والرؤية الجديدة والإضافة، ورأي تاريخ الإنسان ومعارفه في عمومها قابلين للجدل والقياس والتأمل، ولعله أضاف بهذا إلى نفسه تميزا واضحا فاشتهر بالمعرفة الواسعة والعقل الذكي والقدرة علي الاستيعاب والتقنين والتفسير،. ونرى في شعره ما يدل علي هذا كله، حين يصف نفسه قائلا:

يزورني القوم، هذا أرضه يمن من البلاد، وهذا داره الطيبس
قالوا: سمعنا حديثا عنك قلت لهم لا يبعد الله إلا معشر لبسوا
يبفون مني معني لست أحسنه فإن صدقت عرتهم أوجه عيس^(١)

أن البيت الأخير يؤكد أيضا أن هناك صداما عقليا بين أبي العلاء ومجتمعه، هذا الصدام يضطره إلى الصراع بين مسيرتهم بما لا يعتقد أو الارتطام بهم حين يجهر بما لا يحبون.

أن المناخ العقلي لمجتمع أبي العلاء تسيطر عليه عقول تقدر السائد وتخشي التناول الحر للأشياء، عقول ضحلة سانجة، لا تعرف القراءة الدافعة إلى الوعي ومن ثم إلى التغيير، يقول أبو العلاء:

كان كهول القوم أطفال أشهر تناغث وأكوار القلاص مهود
إذا حدثوا لم يفهموا، وإذا دعوا أجابوا وفيهم رقدة وسهود
لهم منطق الأئس للمبين وإنما علي العيسي منهم بالنعاس فهود^(٢)

أنه مجتمع يخشى الحرية والتغيير والمسئولية، ويطمئن إلى الركود

(١) ل٢/ص ٢٣، ٢٤.

(٢) ل١/ص ٢٣١.

والجبن العقليين، مجتمع يصفه المعري بأنه مصاب بالفراغ العقلي، وهو أخطر ما يصيب الأمم^(١) ويصفه أيضا بأنه لا يطلب من المعرفة إلا أن تكون وسيلة للشر لا للخير، بل هو مجتمع يرتكز إلي أمور الدجل والشعوذة ويسلم قياده إلي الأفاكين^(٢)

وأن قصة أبي العلاء المعري مع داعي الدعاة الفاطمي لخير ما يمثل الاغتراب العقلي لأبي العلاء، فقد كان داعي الدعاة نمونجا أو رمزا لهذا المجتمع الذي يخشى حرية الفكر ويخشى كل صوت ينبش في السائد ويستخرج منه ما يتفق معه وما لا يتفق، وقد كانت الرسائل بين الداعي وأبي العلاء محورها الظاهري ما أشيع عن أبي العلاء من ترك أكل لحوم الطير والحيوان، وكان الداعي يجتهد كي يثبت زندقة أبي العلاء ويضيق الدائرة عليه متهما إياه بتحريم ما حلل الله ويتهمه وادعاء القدرة علي الافتاء في الدين دون حق أو علم، وقد تجاهل الداعي من أجل هذه الرغبة عن النظر إلي حياة أبي العلاء ومحنة بصره ليفسر بهما ما شاء من سلوكه وفكره، ورغم إيمان أبي العلاء بقضيته واطمئنانه إلي براعته من مثل هذا الاتهام، ورغم قدرته المعروفة علي الحوار والجدل والاستشهاد فقد كان يقف موقف المدافع الخائف المستضعف، وكان يتحايل علي ما يريد من معان يعلم أنها صحيحة- أو علي الأقل غير ناتجة عن شر وغير متوجهة إلي الشر- "وبذلك حكم علي الجواب أن يكون مقيدا بالحذر، ولم يكن مع من يحاوره علي مستوي واحد"^(٣).

وإذا كانت قصة أبي العلاء مع داعي الدعاة مثالا لما ذاقه من الاغتراب العقلي في مجتمع الشام، فإن لأبي العلاء أكثر من وقفة في مجتمع العراق تشير إلي ذات اللون من الاغتراب.

أولي هذه الوقفات: صدام أبي العلاء مع الشريف المرتضي في مجلسه ببغداد، وكان سبب هذا الاختلاف حول قيمة المتنبّي فنيا^(٤)، حيث تحيز المعري للمتنبّي واعتبره شاعرا كبيرا ونكر إحدى قصائده كشاهد لحديثه

(١) ل٢/ص ٤٢٣

(٢) ل٢/ص ٢٩٥

(٣) رسائل أبي العلاء المعري تحقيق وتقديم د إحسان عباس ص ٨٥، ٨٦، ٨٧

(٤) كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي الجزء الخامس ترجمة د رمضان عبد التواب،

مراجعة د السيد يعقوب بكر الطبعة الثانية دار للمعارف/ ١٩٧٧م/ ص ٣٦

وهي. " لك يا منازل في القلوب منازل"،.. وقيل أن المرتضي فضلا عن كراهيته للمتبي. فإنه قد فطن إلي إهانة أبي العلاء له باختيار هذه القصيدة، حيث أراد غمزا - أن يسبه بهذا البيت من القصيدة:

وإذا أنتك مزممتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

وقيل أن المعري سحب من رجليه في مجلس المرتضي وطرده إلي الخارج،.... فإذا بدت لنا تلك الأقاويل مغالاة، قلنا أن القصة تشير إلي حدث رئيسي علي الأقل هو غضب المرتضي من تفضيل المعري للمتبي شاعرا، وتشير إلي أن هذا الغضب كان واضحا قابلا للمزايدة من الرواة، وهذا الغضب يشير إلي أن هذا المجتمع كان يخضع للاستبداد بالرأى، للتسلط والتحكم، وهيمة الفرد علي النواحي المعرفية لا السياسية والاقتصادية فقط وهيمنة الثبات علي التكبير .

الوقف الثانية لأبي العلاء، هي ما حدث له في أحد مجالس العلم ببيгдаد حين اصطدم برجل جالس فبادره قائلا" من هذا الكلب" فأجاب أبو العلاء من فوره: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما^(١).

أن إجابة أبي العلاء تتعدى الدلالة علي الرغبة في تعويض الذات عن فقد البصر، وتتجاوز معني الإغظة لتدل علي ما هو أهم: علي تحدى أبي العلاء للمجتمع ووعيه بالفجوة العقلية والمعرفية الواسعة بينه وبين هذا المجتمع، تلك الفجوة مسافتها ذات المسافة بين الاسم الواحد للكلب والسبعين اسم له،.... أن هذه الإجابة دلالة علي اختلاف لفة كل من الطرفين المتصارعين هذا الاختلاف الذي أدرجته علوم الفلسفة وعلوم النفس تحت ما أسموه بالفوارق المعرفية بين المغترب ومجتمعه.

وعلي للرمح من هاتين الوقفتين لأبي العلاء في مجتمع العراق، إلا أن هذا المجتمع يبدو في شعره ورسائله- وكثير من مصنفاته- أكثر ملاءمة عقلية له ، يبدو له المجتمع / الحكم الذي كان يامله ، وعند عودته من العراق وفي رسالة إلي خاله أبي القاسم بن أبي سبيكة يقول أبو العلاء" منذ فارقت العشرين من العمر، ما حدثت نفسي باجتباء علم من عراقي ولا شام"^(٢) ولكنه يؤكد في

(١) الأنصاف والتحرى. من تعريف للقضاء / ص ٥٤٣ .

(٢) السابق/ ص ٨٩ .

دات الرسالة أن الذي أثاره إلي العراق "سكار در الكتب بها"

وقد بهره العلم في بغداد حيث وجدته "أكثر من الحصي عند جمرة العقبة، وأرخص من الصيحاني بالجابرة، وأمكر من الماء بخصاره، وأقرب من الجريد باليمامة" (٢)

كانت بيئة العراق ترضي الجانب العقلي من أبي العلاء أكثر من غيرها نستشف هذا من وصفه لها في إحدى رسائله، يقول

"فهذه مناجاتي أيهم منصرفي عن العراق، مجتمع أهل الجدل" (٣) أن أبا العلاء وجد في العراق مناخا عزيزا لديه: مناخ الجدل، الذي يتلاءم معه لأنه انعكاس لصراعه مع نفسه، واصطدم نفسه بالخارج، الجدل صراع والتحام مع آخر، والصراع تعويض عن الحركة عند أبي العلاء كما أن هذا المجتمع يناسب عقلية الثائرة، يقول:

"وحدثت بغداد كجناح الأخيل، حسن، وليس فيه ما حمل" (٤) ولا ينفك يؤكد أن انصرافه عنها لم يكن برغبة منه، بل أجبرته انحداث عليه، يقول:

"وكننت ظننت أن الأيام تسمح لي بالإقامة هناك، فإذا الضارية أحبا بعراقها، والأمة أبخل بصربتها.. ولكن علي كل خير مانع، ودون كل ذرة خرساء موحية أو خضراء حامية" (٥)

أجبر أبو العلاء، علي العيش في الشام وسط مناخ عقلي وفكري لا يأبه له، ولا يقدره ولا يناسبه، مبتعدا عما كان يؤثر، وفي مجتمع الشام يصف أبو العلاء ذلك المناخ الفارغ بالعماء الذي يعاني منه، وبذلك يتوحد مع المجتمع في معاناة واحدة متفقة في السطح مختلفة كل الاختلاف في العمق، إذ يعاني كلاهما من عمانه، وتصبح البطولة للظلام، يقول المعري:

ويصير الأتوام مثلي أعمي
فهلّموا في حنسن نتصادم (٦)

(١) السابق / ص ٨٩.

(٢) السابق / ص ٨٧ الجابرة والمجبورة من أسماء المدينة. والصيحانية التمرة نسبة إلى صيحان وهو سم كبش كان ربط إلى نخلة بالمدينة فأثمرت ثمرا فسببت إليه

(٣) الانصاف والتحرى. من تعريف القنماء بأبي العلاء ص ٥٤٦

(٤) إرشاد الأريب. من تعريف للقنماء ص ٨٦

(٥) السابق ص ٨٧ الصرية واحدة الصرب اللبن للحمض

(٦) ل ٢ / ٣٣٦

وكانه يري التثبوت هو الجامع الوحيد لهما
 والمعرفة قد تجلب الألم والأذى، وهنا يرفضها أبو العلاء لأن شرط
 التوجه إليها النفع لعموم الإنسان:

إذا علمي بالأشياء جر مضرة إلي فإن الجهل أن اطلب العلماً^(١)

والمعرفة تؤلم أبا العلاء إذ تزيد من الهوة بينه وبين المجتمع، وهنا
 يتوجه ساخراً إلي كل إنسان يعايش مجتمعا مثل مجتمعه، يتوجه إليه مؤكداً أن
 للجهل طريق أوحده للذة في مثل هذا الزمن، هكذا يجبره المجتمع على مدح
 الغباء:

رويدك لم تبلغ من الدهر لذة إذا لم تعش عيش الغبي المذموم
 وتسمع فيه ما يصم ذوي النهي فلا روح إلا بالحمام المصمم^(٢)

الحياة الأخلاقية في مجتمع أبي العلاء من دواهي اختراجه:

إن الناتج الطبيعي الوحيد لما مر بنا من التفكك السياسي لعصر أبي
 العلاء، والخلل الاقتصادي، والحياة الدينية المضطربة، والمناخ العقلي غير
 المشبع،- أن الناتج الوحيد- هو التحلل الأخلاقي وفساد القيم في هذا المجتمع، أو
 في نفوس كثير من أهله، يقول المعري:

توهمت خيراً بالزمان وأهله وكان خيالاً لا يصح التوهم^(٣)

أن الواقع في عين أبي العلاء مزدهم بتكتل بشرى بشع ليس منه
 شرار^(٤) وهو تكتل ينشر الهمجية والتخريب والأمراض الأخلاقية في الكون
 كله^(٥) أن حالة اللامنتمي هذه ضد المجتمع واضحة كل الوضوح، فالرجال
 والنساء جميعاً يملكون هذه الدوافع الخطرة اللامسماة، إلا أنهم يخفونها عن
 أنفسهم وعن الآخرين، وليست لديانهم وفلسفاتهم إلا محاولات لصقل وتمدين
 شيء حيواني عنيف غير منظم غير متقلل، وهو لا منتقم لأنه يريد أن يجد

(١) ل/٢/٢٩١

(٢) ل/٢/٣٠٥

(٣) ل/٢/٢٦٦

(٤) ل/٢/٢٧٠

(٥) ل/١/٧٩

الحقيقة".^(١) وأن الحقيقة الوحيدة التي رآها أبو العلاء وأمر بها هي أنه يعيش بين ظهرائي أناس يجمعهم التحايل القنر علي الحياة، واتباع الشهوات والنكالب الشره علي الامتلاك:

وأشرف من ترى في الأرض قدرا يعيش الدهر عبد فم وفرج
وحب الأنفس الدنيا غرور أقام الناس في هرح ومرج^(٢)

هذا المجتمع يطيح بالمحارم في سبيل أغراضه، ويطيح بالأعراف المقدسة.

ما حفظوا جارة، ولا فعلوا خيرا، ولا في مكارم ربحوا^(٣)
والمجتمع لا يحفظ سرا ولا يرعي حقوقا، ملغيا بذلك كل إمكانية للتواصل:

أن شئت إبليس أن تلقاه منصلنا بالسيف يضرب فاعمد للجماعات
تجدهم في أقاويل مخالفة وجه الصواب وأسرار مذاعات^(٤)

انه مجتمع يقدح في الأغراض^(٥) ويقيم بنيانه علي الكذب والإعراض عن صحائح الأمور^(٦) بل ويسخر من الأخلاق السليمة ويتشكك فيها^(٧) حنا يتوجه أبو العلاء بسخريته الفاجعة ليرى أن الخداع قانون أبدي اتفق عليه الوجود كله، والكذب هو النظام الوحيد الذي وحد الإنسانية المتفرقة، يقول:

علي الكذب اتفقنا فاختلفنا ومن أسن خلائقك الصموت^(٨)
أن البيئة الحقيقية الصالحة للانتماء هي الثقة والأمان والقيم

(١) اللامنتمي / ص ١٢ .

(٢) ل ١ / ص ٢٠٢ .

(٣) ل ١ / ٢١٥ وذات المعني في ل ١ / ١٠٢ .

(٤) ل ١ / ص ١٧٤ .

(٥) ل ١ / ص ١٦٦ .

(٦) ل ١ / ص ٢٤٩ .

(٧) ل ١ / ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٨) ل ١ / ١٥٩ .

الصحيحة^(١) المقنعة، والنقيض من كل ذلك بينة صالحة للاغتراب،... وتزداد معاناة المغترب من مجتمعه، حين لا يتركه هذا المجتمع لما ارتضاه من عزلة ووحدة، يقول أبو العلاء:

ولم تكفكم أكباد شاء وحامل ووحش إلي أن رمتم كبد الضب

إذا جوس الأقوام بالحق أصبحوا عداة، فكل الأصفياء علي خب^(٢).

مثل هذه الحياة تجعل المغترب يحذر من المسلمات ذاتها، ويتشكك في العلاقات الحميمة، فالصديق في عينه أكل لحم أخيه^(٣) والوفاء معدوم، بل إن وجود دليل الوفاء انتفاء البشرية عن صاحبه وبراعته من جنس الإنسان:

من ادعى أنه وفي فلينتسب في سوى الأثام^(٤)

أن الخوف هو الشعور الصانق الوحيد الذي يواجه به المعري مجتمعه:

مطيتي في مكان لست آمنه علي المطايا وسرحان لها راع

فأرفع بكفي فإني طائش تدمي وأمدد بضبعي فإني ضيق باعي^(٥)

وعند عودته من العراق يرسل إلي خاله أبي سبيكة رسالة يؤكد فيها انتقاسه بكل كائن غير بشري، يقول "وأنا كما علم- أدام الله تأييده - وحشي الغريزة، أنسي الولادة. وكل أذب^(٦) نفور.

عوى للذئب فاصطنعت بالذئب إن حوى وصوتت بلسان فكنت لطير^(٧)

ويقول في الفصول والغايات: "إذا خلفت، ورجع الصديق، أي صديق

(١) ل/٢/ص ١٠٢.

(٢) ل/٢/ص ١٠٢.

(٣) ل/١/ص ٧٤.

(٤) ل/١/ص ٧٩.

(٥) ق/٢/ص ٧٦٠، ٧٦١ للضبع للعضد

(٦) الأذب. الرجل القصير والرجل الدميع والضئيل والأذب في اللغة الكثير الشعر، وفي

حديث بيعة للعقبة هو شيطان لسمه أذب العقبة وهو الحية" ابن منظور. لسان العرب

تحقيق الأستاذة عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي/ دار

المعارف/ الجزء الثاني/ مادة أذب/ ص ٦٩، ٧٠.

(٧) الفصول والغايات / ص ٣٦٦.

لي، وأي نسيب، أني في الوطن لغريب، الا ينفعني التجريب" (١)
وينفي أبو العلاء إمكانية التقائه بهذا الزخم البشري وإمكانية التواصل معه، فالأغراب هو الواقع الوحيد الذي يضمهما معا" لا نبت سرج في أعلي صرح، فان نبت فانه غريب، وأن ثمره لا يطيب" (٢)

وأبو العلاء لا ينفي نفسه من مجتمعه فقط، بل من التاريخ البشري بأسره لأنه يرى هذا التاريخ في عمومته تاريخ شرور وذنوب، تملؤه الأحداث الرنانة والخطب الجوفاء، بينما يجمع أناسه الشر والدنس (٣) الذي هو غريزة فيهم (٤) وليس اكتسابا:

متي كشفت لخلق البرايا	تجد ما شئت من ظلم وحر
ضفانن لم تزل من قبل نوح	علي ما هان من فزر وعرج
فجرت قتل هابيل أخوه	والقت بين معتزل وترج (٥)

عزلة أبي العلاء المعري:

لم تبدأ هذه العزلة في التاريخ الذي حدده لها أبو العلاء- وهو تاريخ رجوعه من بغداد سنة أربعمائة-، بل قد بدأت هذه العزلة منذ بلغ أبو العلاء السن التي تسمح له بإبراك معنى العماء، ومدى الاختلاف بينه وبين المبصرين.

والمجتمع يساهم بنصيب كبير في دفع الضرير إلي العزلة، لأنه يؤكد له وجود اختلاف بين طبيعتهم، فقد " نظر المجتمع إلي العميان، وعاملهم بثلاث طرق متباينة: كعباء ومسئولية عليه، أو كقصر تحت وصايته، أو كأعضاء به

ويرجع تاريخ ذلك إلي عصور البشرية الأولى حينما استلزم كفاح

(١) السابق / ص ١٩٨.

(٢) د كمال الليازبي أبو العلاء ولزوميته ص ٢٨٤

(٣) ل١/ ص ٨٥

(٤) ل١/ ص ١٦٤

(٥) ل١/ ص ٢٠٣، للفزر من اللضان ما بين للعشر إلي الأربعين، العرج من الأبل نحو الخمسة والعرج بالضم للضياح والفزر ولد البير أي سبع الهند

الحياة تقارب الأفراد لتكثير القبيلة، واعتبر العضو الذي لم يسهم مساهمة كاملة في المجهود الحربي عبئا علي المجموعة، واستنصل، ولمدة قرون كثيرة، اعتبر العميان عبئا علي المجتمع".^(١)

لذلك فإن مجموع تصرفات المجتمع مع الضرير تؤدي به إلى مزيد من الانطواء والكراهية له، بل تولد "ضغطا يعمل ضد العميان إما كإفراء، أو كمجموع أقلية".^(٢)

هذه العلاقة بين الضرير ومجتمعه درجة من درجات العزلة ودافع أساسي للعزلة المادية الحقيقية، التي نراه فيها يتخلص من عبء مشاعر المجتمع تجاهه، كما يتحرر من الطرق التقليدية لمعرفة العالم، تلك الضرق التي توقعه في كثير من الحرج لأنها تتطلب النظر، لذلك "يميل إلي الانطواء علي نفسه، لنقص الاستثارات التي تصله من العالم خارجي وعجزه عن الاستجابة المباشرة الصريحة المتواصلة، فنراه يعوض عن هذه الاستثارات الخارجية باستثارات ذاتية صادرة عن جسمه، أو عن تخيلاته".^(٣) أي يلجأ إلي طرق ذاتية للمعرفة لا يحتاج فيها إلي العالم الخارجي.

وقد كان الشعور بـ"عار العاهة" وخصوصيتها، وعبئها، أحد العوامل الرئيسية التي دفعت أبا العلاء إلي العزلة، فعند خروجه إلي صالح بن مرداس شقيقا لقومه، كان المعنى الصادق الذي تبادر إلي لسانه هو اضطراره إلي هتك ستره، لذا يقول:

تغيت في منزلي برهة ستير العيوب فقيد الجسد
فأما مضي العمر إلا الأمل وحمّ لروحي فراق الجسد
هتت شقيقا إلي صالح وذلك من القوم رأي فسد^(٤)

فستر العيوب هو أول ما ذكر أبو العلاء دافعا إلي الاغتراب.

وفي اعتذاره إلي عزيز الدولة- وإلي حلب- بأنه سيتخلف عن قبول دعوته بالمثل بين يديه، يلح علي أبي العلاء احساسه بفقد البصر وما تراكم

(١) سيكولوجية المرضى وذوي العاهات / ص ١١٧

(٢) السابق / ص ١١٨

(٣) السابق / ص ١٦، ١٧.

(٤) ابن العديم الأنصاف والنحري من تعريف القماء بابي العلاء ص ٥٧٤

عليه من وهن الشيخوخة وأمراضها، ويجعل أفة الجسم- أيا كانت، داعياً قويا لامتناعه عن زيارة أي إنسان، يقول: " وعزير الدولة يعين الكسير بالجبر، فكيف يأمر بإخراج ميت من قبر، لو كنت بارنا من هذه الطلة، لشرفت نفسي بزيارة تلك الحضرة، غير أنني عنها راض، وما أقربني إلي انقراض، وأنا حليف التمراض".^(١) ويؤكد أبو العلاء أن العمي عامل أساسي لعزله في قوله " والأعمى عورة، والواجب استتارة في كل أحواله".^(٢)

وحين يوجه أبو العلاء حديثه إلي الإنسان حاثا له علي الانفصال عن مجتمعه يدعوه إلي التشبه بالأعمى، فالأعمى في مفهومه كامل الانفصال دائما بما، يصلح مثلا للمعزولين عن الحياة، المطرودين منها:

اطرق كاتك في الدنيا بلا نظر وأصمت كاتك مخلوق بغير فم^(٣)

وإذا كان العماء أول العوامل التي دفعت أبا العلاء إلي العزلة فإن علاقته بأمه وفقده لها ثاني هذه العوامل- في اعتقادنا -: فأبو العلاء اندفع إلي أمه بشعور الكفيف، واندفعت هي إليه محملة بمشاعر الأم التي ترى وليدها يعاني نقصانا جسديا ليس بالهين،... وقد أدركت مدى شقائه وأشفقت عليه، فضاعنت من رعايتها له، لأن أومئها ذاتها تضاعفت، فاندفعت تقرا له وتتعهده بالنظافة والمطعم والتسليّة، لتتأى به عن الشعور بالوحدة أو بالنقص الجسدي، أو بالاختلاف عن الآخرين، ولتدفع به إلي مكانة علمية تعوضه فقد البصر: " وإزاء هذه الدالة يتعود الأعمى علي درجة من للحماية تعود به القهقري إلي عهد الطفولة".^(٤) وبالفعل التصق أبو العلاء بأمه، التصاق الطفل وكانت هي مجتمعه الوحيد، فكانت مجتمعا جميلا مثاليا، وكان شعوره بالعماء أكل حدة من شعوره به بعد فقدها، فقد كانت تكفل له الاصطدام بالعماء، وكانت تكفل له الاصطدام المباشر بعاهته، أو بالمجتمع من خلال عاهته،... ولما فقدها فقد كل هذا، فوصف نفسه في رثائه لها بأنه كهل ما تعدى مدى الفظام.

وقد تزامن فقد أبي العلاء لأمه مع عودته من رحلة بغداد- التي نزع منها أنها لم تكن موفقة، وإلا لكان أبو العلاء قد أعادها علي الأقل هربا من مشاعر

(١) ابن للتقديم - الانصاف والتحرري / ص ٥٧٤.

(٢) التتطي لبنا للرواة. من تعريف للتنام/ ص ٣٦.

(٣) ل ٣١٤ / ٢.

(٤) سيكولوجية المرضي ونوري العاهات ص ١٢٢.

يأسه ووحدته التي تكابت عليه بفقد أمه،- وأن لم تكن رحلة بغداد فاشلة، فهي علي الأقل قد صدت أبا العلاء بالمجتمع، أو أوقعت في فخ التجريب و" الانتقال من بيئة لأخرى تتحدى قدرته علي الحركة، ربما يولد لديه شعورا بضيقه، فربما يرفض ويثور، ضد أي مساعدة تقدم له في نواح كثيرة يعلم أن المبصرين يؤدونها بأنفسهم دون الاعتماد علي غيرهم، وربما تطور ذلك إلي كراهية عامة لمجتمع المبصرين". وأي هذين الشعورين: " التراجع إلي الطفولة، أو التمرد والعداء لمجتمع المبصرين" إذا ما استمر يعني الشعور بعدم الأمان".^(١)

عامل آخر رئيسي دفع أبا العلاء إلي عزلته المادية هو:

" خلل بنية المجتمع" وقد رأينا في الصفحات السابقة أن هذا الخلل قد استشرى، في الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والأخلاقية والعقلية، هذا الخلل الذي أطلع أبو العلاء عليه وأمعن في وصفه في قصائده يخلق نوعا آخر من الأهديد والشعور بعدم الأمان، إذ يزداد يقين الفرد بأنه محاط بالفوضى والخسر، معرض للالتهم والأدانة- وأن لم يخطئ-، معرض للنفي من ذاته وخصوصيتها لأنه مشاع للجميع، ولأن هذا الجميع يستطيع غزوه واقتاعه بما لا يرضي وبما لا يتفق مع جوهره، فإذا كانت " الشخصية تطلق علي عدة مان، فقد تطلق علي الشعور بوحدة الحياة الروحية للفرد بازاء المجموع".^(٢)

العزلة هنا مقاومة وانتقاد للجوهر، يقول أبو العلاء:

بعدي من الناس برء من سقامهم وقرى بهم للحجى والدين أنواع
كالبيت أفرد لا إيطاء يدركه ولا سناد ولا للفظ إقواء

توديت للويت فأنزل، لا يراد أنني سيرى لوى الرمل، بل للنبت للواء^(٣)

يصف أبو العلاء عزلته بأنها جهاد من أجل الأنا، ونأي بها عن كل ما تنكر^(٤) خاصة عن المجتمع الذي لا يعتقد المعري أن هناك إنسان لم يشق به

(١) السابق . ص ١٢٣

(٢) . عبد الرحمن بدوي . العبقريّة والموت . ص ٥٠

(٣) ل ١/ ص ٧٥

(٤) ل ١/ ص ٢١٤

ولم يعان من وجوده في مثله (١)

وسقط الزند يحمل البدايات الشجيه لعزلة أبي العلاء، حيث يتكى أبو العلاء علي قيمة راحلته، ويصف وجودها المرتبط بوجوده، والمنصهر معه في بوتقة واحدة: هي الرغبة الدائمة في الرحيل والانفصال عن العالم بأسره، يقول:

مواصلة بها رحلي كأتى من الدنيا أريد بها انفصالا

فالرحلة إذن لم تكن إلي بلاد أخرى، بل كانت تشوقا إلي عالم آخر وحياة أخرى، وقد حقق أبو العلاء رغبته هذه- أو كاد- في إصراره علي عزلته المائية التي أضاف إليها عزلة أخرى من خلال الشعر- كما سنرى في الفصل الأخير من هذه الدراسة- وكان مناجاته لراحلته في شعر السقط وإلحاحه علي السفر، إنما كان إلي حنين العالمين.

وفي سقط الزند نرى لهات أبي العلاء وراء " النيوتوبيا" نرى علاقة مضطربة بالأخز، وترددا بين الانتماء والرفض، يقول المعري:

تجنبت الأتام فما أوخني وزنت علي العدو فما أعادي
ولو أنني حببت الخلد فردا لما إحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت علي ولا بارضي سحائب ليس تتنظم البلادا (٢)

وقد رأي د. غنيمي هلال في هذه الأبيات تناقضا بين الصور والفكرة، وأن أبا العلاء يخالط معانيه من أن لأخر في هذه القصيدة، حيث يدعي الرغبة في خير الإنسانية ثم يعلن ضيقه بالناس وعدم مبالاة بما يحدث لهم إذا ما نال ماربه الشخصي. (٣)

والمواقع أن أبا للعلاء لا يتناقض مع نفسه، فهو حين يعلن رغبته في تجنب الناس- في البيت الأول من هذه الأبيات- إنما يعلن رفضه للواقع وعدم رضائه عنه لكنه لا يعلن رغبته في تكميره أو سحقه، لو الانتقام منه، هو يعلن انفصاله لكنه في ذات الوقت لن يتوانى عن بث خير ما - كما في البيت الثاني والثالث- إذا ما تيسر له ولئن يحصره في ذاته، أنه في هذه الأبيات يبسط مفارقة

(١) ق/١ ص ٤١..

(٢) ق/٢ ص ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٤.

(٣) د. محمد غنيمي هلال. النقد الأدبي الحديث. دار نهضة مصر للطباعة والنشر

١٩٧٩م. ص ٤٢٣.

مؤلمة، هي أن الواقع بهذا الشكل الذي لا يرضاه واقع ينبذ ذاته، ويطردها، واقع يرفضه، وربما يرفض أن يمد إليه يد الخير، أما هو فإنه أن رفض تشوه هذا الواقع، لن يرفض إصلاحه وإنماءه وخيره ، كما يعلن انه يرفض واقعا مشوها ويرجو واقعا لانسائيا مثاليا .

العزلة إذن دفاع عن الوجود الشخصي، دفاع عن الماهية وليس ترفا وقد أيقن أبو العلاء من أن وجوده الأصيل،- وجوده الحقيقي- لن يتحقق إذا ما انسحق تحت إقدام المجموع، فوصف امتزاجه بهذا المجموع تارة بأنه امتزاج بين الروح والجسد^(١) بما يعني ذلك من الاختلاف والتنازع، كما وصف هذا الامتزاج بقوله:

وأفسد جوهر الأشياء أشب
كما فسدت من الخيل العراب^(٢)

ويعلن رفضه للمنتمسين في الزحام^(٣) يعلن رفضه أن يكون قطيعا مسوقا، فأمامه داخل نفسه^(٤) لا خارجها، لأن هذه البلاد التي تضمه لا تصلح للأمامة، بل أن النجم للهادي يظل طريقة فيها:

بلاد يضل النجم فيها طريقه
ويبتي دجاها طيفها عن أمامه^(٥)

لنها صحراء تنبذ الدليل، وغواية ترفض الهدى.

وحين يصف غربته يراها مزيجا من شينين، أو وسطا بين غربتين:

هي غربتان، فغربة من عاقل
ثم اغتراب من محكم عقله^(٦)

وتلح علي لبي للعلاء أمنية للعزلة في كل سياق، فيتمني أن يعيش علي هامش الحياة، بلا لون أو خصوصية، إذا كان هذا القربان كفيلا بأن يقيه شر ما يخشى: "ومن لي بالمنزلة بين المنزلتين: لا أكرم ولا أهان"^(٧) وهذه للرغبة تؤكد أن عزلته للمادية. كانت خشية من الاحتكاك بالحياة وأن هذه الخشية

(١) ل/٢/ص ٢٩٧.

(٢) ل/١/ص ٨١.

(٣) ل/١/ص ٩١، ٩٢.

(٤) مع أبي العلاء في سجنه. ص ١٨٧، ١٨٨.

(٥) ل/١/ص ٨٦.

(٦) ل/٢/ص ١٠٢.

(٧) أبو العلاء للمعري. للفصول والغايات/ص ٧٢.

منبعثة من يقين كامل بفساد الحياة، وشرورها، وانعدام جدوي "الفعل" فيها.

ولعل ذات الأمنية نراها في موضع آخر حين يعمد أبو العلاء إلي جمع الحروف الزائدة في اللغة العربية في قول موجز أو جملة واحدة، فنراه يستخرج منها جملتين أو معنيين "أحدهما": التناهي سمو" والأخر: تهاوني أسلم وربنا مزيل الشبهات"^(١).

فقوله: التناهي سمو سعي دائب إلي عزلة الشخصية، وكفاحها ضد الابتذال^(٢) أما قوله "تهاوني أسلم" فهو ذات المعني الذي عمد إليه حين أراد المنزلة بين المنزلتين.

"والصمت" أحد صور العزلة التي يلجأ إليها أبو العلاء المعري ويحتمي بها، يقول:

لم ترني حميت بنات صدرى فما زوجتهن وقد عنسنه
ولا أبرزهن إلي أنيس إذا نور الوحوش به أنسنه^(٣)

الصمت نوع من الأتعة، فهو يحجب داخل الإنسان بما يقيه شرور خارجه^(٤) وهو أيضا تحفظ وثقة في الذات تقابلها عدم ثقة في غيرها^(٥) وإذا كان دافع للصمت الخوف، فإن الصمت منجاة في عين المعري:

قد نال خيرا في المعاشر ظاهرا من كان تحت لسانه مخبوءا^(٦)

الصمت في شعر أبي العلاء إغلاق علي سر القلب وهمومه^(٧) احتجاب حتى عن أقرب الأصدقاء^(٨) لختباء عن مجتمع غيبي^(٩)... أن الصمت وليد عوامل قوية في حياة المعري، لذلك التزم به صادقا ولم يتخل عنه، بما انعكس في خصائص شعره في صورة تعبيرية خاطئة، فالمعري احاط شعره بالصمت

(١) السابق. ص ١٤٦. ومثل هذا للمعني يتروى ص ١٢٢، ٩٠، ١٢٣ أيضا

(٢) لؤاد كامل. للشخصية بين الحرية والعبودية. ص ٥٤، ٥٥.

(٣) ٢/ص ٣٦٢.

(٤) للشخصية بين الحرية والعبودية / ص ١٤.

(٥) سيكولوجية المرضي ونوي العامات/ ص ٣١، ٣٢.

(٦) ١/ص ١٢٠.

(٧) ١/ص ١٩٢.

(٨) ١/ص ٢٨٢.

(٩) ١/ص ١٢٠.

، وغائه بكثير من التحفظ والإغلاق، وحاول أن يجعله عالما يفهمه هو فقط
وبارك أسرار وحدته، نلمس هذا من خلال اللغة والصورة الشعرية والأساليب
شعرية وموسيقى الشعر أيضا.

وفي شعر أبي العلاء الحاج علي عوالم موحشة تؤكد اطمئنانه إلي
العزلة واختياره الحقيقي لها، ففي هذا الشعر يكثر نكر الصحراء بكل كائناتها،
فتشكل في شعر للمعري مجتمعا دافنا لئلا مناسباً للمعري، يقول:

والمصر أنس منه خرق مفازة أنس الدليل بقائها مع طائها^(١)

التفر في شعره أمنية عزيزة^(٢) والعزلة أعز الخطوط^(٣) ومعايشة
مفردات الصحراء خير من معايشة المجتمع^(٤) لذلك نرى معري يكثر من
وصف الحرياء المقيمة بشمس الصحراء^(٥) ويكثر من وصف الناقة وغيرها
مما سنطالعه في الدراسة الفنية لشعره.

وإذا كان عالم الصحراء أحد العوالم التي يعتزل فيها أبو العلاء، فإن
عالم للعلماء ومفرداته يشكل له بديلا عن المجتمع، فهو يأنس بالعصا، عصا
الضرب ويرأها خيرا من مصاحبة الإنسان وأكثر أمنا.^(٦)

وعالم الحيوان بديل للمجتمع عند أبي العلاء أيضا، فهو سريع الائتلاف
مع كل كائن ضعيف عاجز يؤنسه^(٧) وأن إحساس أبي العلاء بفقده للبصر كان
ترقيقا مفرطا لمشاعره، جعله يستشعر ضعف أي كائن ويضخم من نقب
المساح به، فهو يتخيله إنسانا، ويسقط عليه إحساسه بفقده للبصر فيتراءى له
أنه يعاني مثل ما يعاني إذا ما تعرض للذبح أو السجن أو تعرض صفاره لخطر
ماء، من هنا امتنع أبو العلاء عن أكل للطير والحيوان رحمة بعجزها، مدفوعا
بمحنة بصره. فلم يكن موقفه تحريما دينيا إذ لا يليق به هذا وهو مؤلف
للتصانيف الدينية التي تؤكد قراءته ووعيه الديني. وإذا كان هذا الموقف من

(١) ل/١ ص ٥٨.

(٢) ل/١ ص ١١٤ ويتردد ذات المعنى في ل/٢ ص ٣٧٩.

(٣) ل/١ ص ١٢٣.

(٤) ق/٤ ص ١٧٧٠، ١٧٧١.

(٥) ل/١ ص ٢٠٩.

(٦) ل/١ ص ١١٣ وذات المعنى في ل/٢ ص ٣٤٩.

(٧) خليل شرف الدين. أبو العلاء المعري. ص ٩٢، ٩٣.

أكل الطير والحيوان مدفوعا بمحنة فقد البصر، فإن لجوء أبي العلاء إلي عالمها وتوطيد صداقته بهما في شعره كان دافعه فقد للبصر أيضا، لأنه بحث عن الانتناس والألفة التي تفرضها الحاجة الإنسانية التي منعتَه هذه العامة عن إشباعها.

كذلك كان المجتمع محرضا لأبي العلاء دافعه إلى استبداله، بعدما رأى خله، واقتقد الصدق والثقة فيه، وسرى في شعر المعرى مملكة كاملة للحيوان واعتمادا كبيرا عليه في تصوير اغترابه.

عالم الليل لحد للعوالم الأخرى المتكررة في شعر أبي العلاء التي يري فيها عزلة خاصة... وعالم الليل عالم علاني خاص، لأنه عالم عاينه فمنه تتطلق معاناته، وهو للوحيد بظلامه وسكونه الذي يشعر لبا للعلاء بتوحد للكون معه في عزلة واحدة ومحنة واحدة أو عاء واحد^(١) لذلك فإن ثنائية الليل والنهار تتكرر في شعره - وتعد لحد محاور للطباق والمقابلة في هذا الشعر، لأنها ثنائية تصور صراعه بين اللحم والواقع.

وعالم للمجردات عالم آخر للعزلة في شعره، فأبو العلاء في سقط للزند يتوحد مع للسيف ويمهد إليه بتحقيق حلمه في الحركة والفعل، أما بعد المرحلة الأولى من السقط فقد توجه لبو للعلاء إلي للدرعيات، توجه إلي مرحلة جديدة من للرؤية والاستكشاف واللوعي، مرحلة واعية ناضجة للقضايا، واحتواء للذات، واحتواء للمجموع.

والدرعيات أرهاص طبيعي وتوطنه حقيقية للزوم ما لا يلزم، لأن للدرع مقاومة ودفاع لا هجوم، لذلك دعا مفهومها لبا للعلاء إلي المزيد من جهاد للنفس وحملها علي المشقة.

ولجوء أبي العلاء إلي للدرع، للتحلم أيضا بعالم ليست إنسانية، وتوحد بأشياء ملمونة، ويوح بالوحدة والوحشة التي لم تشبع عبر مسارها للشرعية، فلجات إلي مفاتذ أخرى جانبية غير مطروكة.

وهنا يجدر بنا تحليل علاقة أبي العلاء بالمرأة الذي لجنائه ليأتي منسجما مع منطلق للموضوعات وتدرجها للطبيعي:

عزف أبو العلاء عن المرأة، أو هكذا بدا لنا في الظاهر - حيث لم يشتهر عن أبي العلاء علاقة بامرأة غير أمه، ولم يتقدم للزواج من إحدى النساء، فاشتهر بكرامة المرأة، واحتقارها خاصة أن كثيرا من شعره يغري بهذا القول، فهو يحث علي هجر النساء ويراه هجرا يجلب الأيناس والراحة إلي النفس، يقول:

أن صحّ عتلك فالتفرد نعمة ونوى الأوانس غاية الإيناس^(١)

وهو لا يهجر المرأة فقط، بل يعاملها معاملته للشيطان الرجيم، فيستعيز من طقوسها ومقدمات مجيئها: الحلي والعطر، ويصور في إحدى درعياته صراع درعه مع مفردات عالم المرأة هذه، يقول أبو العلاء:

وليست وأن جاءت بحلي وزينة عليّ كدرعي عزة وصيانة
وليس أبوها بالذي أنا بائع ولو ساق فيها أبله وحصانه
وما سامحت نفسي بها عند حادث فلانا فما بالي وبال فلانة^(٢)

وأخلاق المرأة في نظر أبي العلاء ليست غير الخيانة والتسلط والاندفاع، ويكفي الرجل من خطرهما تعرضها له بالتبرج والغواية وأضعاف العقيدة، يقول:

أقلّ الذي تجني الغواني تبرج يري العين منها حليها وخضابها
فإن أنت عاشرت الكعاب فصادها وحاول رضاها وأحزن غضابها
فكم بكرت تسقي الأمر حليلها م الغار، إذ تسقي الخليل رضابها^(٣)

ولأنه يري جوانح المرأة ملأى بالسّم والخديعة^(٤) يكثر من تشبيهها بالحية، مما ستعرض له في الدراسة الفنية لشعر أبي العلاء- مما يحمل إلينا روح المتنبّي حين يصف المرأة، يقول المعري:

وفي الحيّ أعرابية الأصل محضة من القوم أعرابية القول والطبع

(١) ل٢/ص ٤٩.

(٢) ديوان سقط الزند. طبعة بيروت. ص ٢٩٧.

(٣) ل١/ص ٩٤.

(٤) ل١/٣٤٧.

٥٠/٣/١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦ لبة: لبيبة الوكع: اللدغ الطلا. ولد الظبية

وقد درست نحو السرى ، فهولبة
ألفت الملا، حتى تعلمت بالفلا
ومن يترقب صولة الدر يلقيها
وبما كان من جر البصر أو الرفع
رنو الطلا أو صبغة الأل في الجذع
وشيكا وهل ترضي الأسود بالوكع^(٥)

ويصبح من العسير علي الأسد- الذي يرمز به أبو العلاء إلي نفسه
كثيرا خاصة في هذا السياق- يصبح من العسير عليه في غالب الأحيان لأن
يضعف أمام امرأة - حية- عالمها الظلام والغدر، بينما عالمه أنفة ونعمة
ووضوح واقتدار، لكن هذه المرأة أحيانا تشبه بهذا الأبد حين يريد أبو العلاء
وصفها بالافتراس والوحشية والنهم:

وأري العروس تحجبت في خدرها كمرس الأساد في الأخدار^(١)

نظر المعرى إلي المرأة نظرة خوف وتحقير في ذات الوقت، وأمن
أنها مخلوق غادر ناقص شره، لذلك فهي تنفر من الرجل الضعيف، الذي أوهنه
الزمن، ولا تقي بعده^(٢) وتكلم بمن لحقه الشيب، فيحذر في شعره كل من
أبيض شعره من أن يذو منها^(٣) لأنها في وقت لاحق ستنكر له باحثة عن
الأقوى والأكمل^(٤) والأجمل.

وحصانة للمرأة أو عفتها في رأي المعرى خرافة أو محال، لذلك يعتقد
أن السر الحقيقي وراء تحريم الإسلام دخول الطفل مخدع المحارم إنما هو
الشك في عفة للمرأة ذاتها، وليس أي سبب آخر^(٥).

مثل هذه الصفات التي يلحقها أبو العلاء بالمرأة تلحق بكل أنثي في
الأرض: أنثي الحيوان، وأنثي الطير، وفي قصته الرمزية: " مصرع الفنان " أو
(قصة للوحش) يصور المعرى أنثى الحمار الوحشي غير عابئات بموته أو
مباليات بحانثة الأليم^(٦) في الغابة.

أن صورة المرأة في شعر أبي العلاء صورة تؤكد أن لأبي العلاء موقفا

(١) ل/١/٤٢٣.

(٢) ل/٢/٢٦٢.

(٣) ل/٢/٣٥٧، ٣٥٨.

(٤) ق/١/ص ٧٢، ٧٣.

(٥) ل/١/٢٤٧.

(٦) كامل الكيلاني . حديثة لبي العلاء . ص ٧٢ .

منها، ولا نستطيع الرأي القائل بأن هذا الموقف إنما هو مجارة للمجتمع^(١) الذي اعتاد وصفها بما يشين بعد أن شاع عنصر الأجنبيات من النساء وأشاع معه كثيراً من الفجور والتحلل، لأن المجتمع في عهد أبي العلاء لم يتخذ موقفاً عدائياً جمعياً من الزواج، ولم يناد بالعقم والثورة علي النسل، بل أن شهرة موقف أبي العلاء منها دليل تفرد به، أو تميزه وحده بالإفراط والتطرف والحدة علي الأقل.

كذلك لا نستطيع تبرير عزوف أبي العلاء عن الزواج برقة حاله المادية إذ كان يستطيع أن يتزوج من رقيقة الحال التي تقتنع بدخله المتواضع الذي كان يقسمه مع خادمه.

كذلك فإن التاريخ لم يحتفظ لنا بما يؤيد معاناة أبي العلاء من ظرف جنسي خاص دعاه إلي نم الزواج والقول بتعطيل النسل كما ذهب إلي ذلك بعض الأراء^(٢) بل أن شعر أبي العلاء يؤكد النقيض من ذلك، حيث يصف المرأة وصفاً يتجلي فيه افتتانه بها وتعطشه إلي وجودها، حتى في حال تحذيره منها، ووصفها بالغواية وبما لا يليق، كذلك تبدو هذه المشاعر في غزله الذي تد يبدو تقليدياً للرحلة الأولى، يقول:

لم يكنها نور خديها، ونور نقا
كانت أضراً لأهل للنسك من صنم
في ثغرها، فأصارت عشرها عنما
فليبعد الله تلك الخود والصنما^(٣)

والواقع أن وصف أبي العلاء للمرأة ولفت أنظارنا، حيث يؤكد حينئذ إليها، واستشعاره حاجة طبيعة للإرتباط بها، ويبدو ذلك بصدق في غزله- الذي لم يكن فقط استهلالاً لقصائده، بل كانت له قصائد كاملة^(٤) ومقطوعات قصيرة وأبيات متفرقة فيه-، وتستوقف الدراميين لهذه الناحية من حياة أبي العلاء غزليته التي أجاز بها بيتاً لأحد الشعراء^(٥) حيث يبدو إحساسه وانفعاله بتكوين

(١) أنيس للمقدس. امرأة الشعر في العصر العباسي. دار العلم للملايين. بيروت. ط ٥/ سنة ١٩٦١م/ ص ٤١٥.

(٢) د. مصطفى صادق الجويني. لفتق من الإبداع وللتلقي في الأدب والفن. دار المعارف. سنة ١٩٨٣م. ص ٢٤.

(٣) ٢٩٧/ ٢٢.

(٤) ق ١/ ٧٢٩، ٧٢٨، ق ٣ من ١١٢٧ إلي ص ١١٤٠.

(٥) ق ٢/ ص ٨٨٤ إلي ص ٨٨٨.

المرأة المتناسق ومفردات جمالها انفعالا طبيعيا.

بل أننا نستشف شوق أبي العلاء للمرأة من حديث عابر يصف فيه برغوثة قد حط على جسد غادة، فيبدو أبو العلاء مسقطا أمانيه ومشاعره علي كاهل هذا البرغوثة، فيصفه حين " يمر بمواقع التقبيل من الفتاة، وأميرها الفيور شاهد فلا يغار " ويتتبع البرغوثة الذي " كم بات بين الكاعب وبين الشغار (الثور الملاصق للجسد) يرتع من جسدها حيث شاء، لا تظن الفاحشة، ولا يستراب".^(١) ... أننا لا نستطيع أن نتغاضى عن مثل هذه المواضع التي يبدو فيها انفعاله الجنسي بالمرأة عاليا.

وفضلا عن هذه المواضع من شعر أبي العلاء- ولديه عامة- التي تؤكد لهفته إلي المرأة، فإن هناك مواضع أخرى من شعره تكاد تشير إلي علاقة حب خاصة بين أبي العلاء واحدى النساء حيث نسمع في هذه المواضع موقفا مختلفا من المرأة^(٢) به شجن التجربة الحقيقية وأحزان المعاناة الخاصة، به صدق المعرفة والتجريب، به خلال الذكرى وأحزان اللباس.

وتكثر هذه المواضع في سياق الحديث عن العراق^(٣) فنرى غزل أبي العلاء في المرأة من خلال ذكره للعراق يحمل روحا خاصة وتأملا واسعا، كتلك القصيدة التي طالع بها للمعري أمامة، ومزج بينها وبين رمزية الأرض وطقوس للخصب ومفردات الكون المختلفة:

سبح الغراب لنا، ثبت أعينه	خبيرا أمض من الحمام لطيفه
زعمت غولادي للطير أن لقاءها	بسل تتكر بعدنا معروفه
ولقد ذكرتك يا أمامة بعدما	نزل الحلبل إلي التراب يسوفه
والعيس تعلن بالحنين إليكم	ورغامها كالبرس طار نديفه
فنسيت ما كلفتني وطالما	كانتني ما ضمرتني تكليفه
وهواك عندي كالغناء لأنه	حسن لدى ثقيلة وخفيفه ^(٤)

كما نطالع صدق التجربة وواقعيتها في تلك المواضع من شعر المعري

(١) حديقة أبي العلاء . ص ٨٢ ، ٨٣ وللقصة أيضا في النصول وللغايات ص ٧٩ ، ٨٠

(٢) ل٢/ص ٣٤

(٣) ق٣/١٠٤١

(٤) ديوان سقط الزند بيروت ص ٢٢٣ رغامها زيد يخرج من فيها . سبح . عرض .
بسل حرام يسوفه بئمه البرس للظن

التي يصف فيها بأسه المطلق وحزنه النبيل حين يتلبسه يقين بأن المرأة لا تدنو من عالمه إلا في الخيال والخيال فقط.^(١)

أن واقع حياتنا البشرية يقتضي القول بأنه " ليس بين البشر مخلوق لم يلتق في حياته بذلك (الأخر) الذي أثار اهتمامه، وأخرجه من وحدته، وعمل علي تحويل كل انتباهه من (الأنا) إلي (الأنث)".^(٢)

لذلك لا نستبعد وجود علاقة بين أبي العلاء وإحدى النساء، نستبعد العكس من ذلك، ولكن سواء صح هذا أم لم يصح.^(٣) نتساءل لماذا كانت النتيجة عزوف أبي العلاء عن المرأة بعد أن استبعدنا عامل الفقر، وعامل مجازاة المجتمع في ذمة للمرأة، وكذلك عامل معاناة أبي العلاء من ظرف جنسي خاص...؟ الواقع أننا نظن أن هناك أكثر من عامل وراء هذا العزوف ولعل أولها وأقربها إلي الواقع والعقل: كف بصر أبي العلاء مضافا إليه تشوه وجهه من آثار الجدري، وقد كان كف البصر كفيلا وحده بمنع أبي العلاء عن المرأة.... يقول أبو محمد عبد الله بن الوليد بن غريب الأيادي المولود بالمعرة حين زار أبا العلاء مع عمه أبي طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني- يقول واصفا هيئة أبي العلاء ووجهه:

" دخلت علي أبي العلاء، وأنا صبي مع عمي أبي طاهر، نزوره، فرأيت قاعدا علي سجادة لبد، وهو شيخ، فدعا لي ومسح علي رأسي، وكانني أنظر إليه الساعة، وإلي عينيه، أحدهما نادرة، والأخرى غائرة جدا، وهو مجدر الوجه، نحيف الجسم".^(٤)

كيف يستطيع أبو العلاء أن يظن بالمرأة ظلًا حسنًا، وأن يعهد إليها بالوفاء والأمانة والعفة، وهو يعلم ميلها إلى الاتساق والجمال،- أو علي الأقل،

(١) ق/٣ ص ١٣٢٠، ١٣٢٥، كذلك ق/٤، ص ١٤٩٥، ١٤٩٦.

(٢) د زكريا إبراهيم. المشكلة للخلقية. مكتبة مصر ط ١/١٩٦٩م/ ص ٢٨١.

(٣) نفت د. بنت الشاطئ لاحتمال وجود تجربة واقعية لأبي العلاء مع المرأة، ووصفت غزاه فيها بأنه لا يتعدي أن يكون " مولد محروم من الحب" أو أن يكون " من الشعير الرمزي" مع لبي للعلاء في رحلة حياته. دار للكتاب العربي لبنان بيروت ط ١/ ١٩٧٢م/ ص ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧١. لما عميد الأدب العربي فقد نفى إحساس أبي العلاء بالحب والغزل لأنه " رجل ضرير مفعج تد ملكه للزهد وحالت فلسفته بينه وبين لذات الحياة، إنما هي مقطوعات نظمها نظما فنيا".

(٤) القفطي. لنباه الرواة علي انباه النحاة. من تعريف القدماء ص ٣٣

إلى مالا يدبر وير عج.. كيف يصف المرأة. كما مر من مر صعد - انته لا
تخلص لضعيف أو عاجز أو عجوز، وأنه سرعان ما تكل من يهاوى لتحق
بالأكمل، كيف يوقل بهدا، ويأمر إلى امرأة بهذه الصعوبات وهو على هذه الحال
التي لا يأمن فيها إلى امرأة

أن أبا العلاء شديد الفرع من فقد بصره، شديد الخجل منه، وقد مر بنا
وصفه له بأنه عورة يجب سترها، كذلك ينربد في كتب الأدب حادثة بعينها لها
دلالة كبيرة فيما نحن بصدد

"نذكر أنه نزل إلى السرداب، وأكل شينا من رب أو دبس، ونقط علي
صدره منه يسير وهو لا يشعر به، فلما جلس للأقراء لمحه بعض الطلبة، فقال.
لعن الله أنهم، فاستحسن منه سرعة فهمه بما علي صدره، وأنه الذي أشعر به" (١)
أن حياء أبي العلاء من إظهار نهمه وبيان أمره لتلاميذه، حياء ولذته
حساسية فائقة من العامة، بما انقلب بعد ذلك إلى إحساس حاد بوجود الامتناع
عن كل ما يبدي آثار هذه العامة، ويبدى اختلافه في السلوك عن غيره من
الناس، ولا نعتقد أن من هذا التعقيد النفسي ومثل هذه الأنفة تسمح لصاحبها بأن
يتزوج وأن يبدو أمام أنثاه غير مكتمل السلوك، والهينة أو البنية، كيف يستطيع
أن يبدو نكرا مثيرا للاشفاق

أنا أبا العلاء قد استتر من أجل أكل العسل، لكنه لا يستطيع أن يستتر
وهو يحب امرأة ويبني بها، لذلك غبط البرغوث - وقد مرت بنا قصته - لارتياحه
جسد غادة وكان محك غبطته له أنه لن يستراب، ولن تظن به الفاحشة، والجامع
بين الوصفين أنه لن يراقب، وأنه - أي البرغوث حر طليق وأن ما يفعله
مالوف ليس شاذا. ويشير أبو العلاء إلى علاقة كف بصره بامتناعه عن المرأة
كثيرا في شعره، فمن ذلك قوله:

سري إمامي وتاويبا علي اثري	ما سرت إلا وظيف منك بصحبي
الغيت ثم خيالا منك منتظري	لو حظ رحلي فوق النجم رافعه
وزيد فيه سواد القلب والنظر (٢)	يود أن ظلام الليل دام له

وكان أبا العلاء حين أدرك أن عماء يحول بينه وبين انثاه، أبي

(١) إنباه للرواة تعريف للفمء ص ٣٧ النبس العمل

(٢) ق ١ ص ١١٨. ١١٩

الإملاقاتها في الظلام، الذي ود تطويله حيث يتيح له استقبال الخيالات والأفشاء إليها بما لا يطيق البوح به في عالم النهار، أن الظلام الذي يحول بينه وبين المرأة هو ذاته الذي يحتوى أبا العلاء في لقائه بالمرأة.

وكثيرا ما ييكي أبو العلاء حرمانه من ربي الحسان^(١) وكثيرا ما ينقلب علي نفسه معيرا أياها بالعجز والنقص حين تتشوف إلي النساء^(٢) وهو يصف أمامنا بوضوح تلك العلاقة بين عجزه وعزوفه عن المرأة في قوله:

والمراء ليس بزاهد في عادة لكنه يترقب الإمكانا^(٣)

أن معاناة أبي العلاء بفقد بصره مانع أساسي من ارتباطه بالمرأة، وهو عامل أرضي- يتصل بالواقع- ولا يعقل أن تكون معرفته بالأم البشر مانعا دونها، لأن المعرفة بالأم البشر ليست كافية لمنع الفعل والإرادة، خاصة الفعل الجنسي^(٤) الذي هو وسيلة لتعمير الحياة وازدهار الكون بالنسل والأجيال المتتالية. وسيلة لغاية سامية لذلك كان هذا الفعل- الجنسي- من أقوى شرائح إنسان وأشدّها إلحاحا عليه.

أن فقد البصر قد حال بين أبي العلاء والحياة الطبيعية، بوجه عام، أورتها الحرمان من تلك الحياة، وأن فقد البصر أيضا هو الحائل الأساسي بينه وبين المرأة، لذلك فكثيرا ما يبذل أبو العلاء بين موقع المرأة وموقع الحياة في شعره مازجا بينهما معتبرا أن أحدهما تعني الأخرى وكثيرا ما يخاطب الحياة بأنها العروس التي أوقع الطلاق بها^(٥) لكنه حين يتخيل الحياة أماء، يأسف- إذ لا منجي له منها- وقد لمسنا مدي ارتباطه بأمه- يقول مخاطبا الحياة:

لو أنك العرس أوقعت الطلاق بها ولكنك الأم مالي عنك منصرف^(٦)

وكما أنك زهده في المرأة وأعلن لنتظاره للأمكان، يصرح أبو العلاء

(١) ل٢/ص ٣٧٢ ..

(٢) ل٢/ص ٣٦٠

(٣) ل٢/ص ٣٦٠

(٤) د. فواد كامل. الفرد في فلسفة شوبنهاور. مكتبة الدراسات للفلسفية دار المعارف

١٩٦٣م. ص ١٠٥، ١٠٦.

(٥) ل٢/ص ٥١

(٦) ل٢/ص ١٠٠

بأن زهده الظاهري في الحياة إنما هو عجر عن نيلها

من لم ينلها أراك زهدا ومن لعير بصليانة^(١)

فالمرأة مستعصية الوجود كاستعصاء الصليانة علي العير.

وليست المرأة نظير الحياة لأن كلا منهما أنثى- فقط،- بل لأن المرأة مصدر الحياة، فهي مصدر النسل والتعمير، وهذا عامل وجيه لفرع أبي العلاء منها، لأن يقينه يتمكن الشر من الطبيعة الإنسانية وفساد الكون واستحكام حلقة الموت حول الإنسان، كل ذلك دافع لفرعه من المرأة واشتهائه إلا تبقى علي الأرض جالبة علي سكانها حياة يختمها الفناء ويضخمها الشقاء،... أن معاناة أبي العلاء في الحياة، وفساد المجتمع حوله جعله يتصور حياة كل وليد بهذه القتامة، لذلك فخير للنساء العقيم^(٢) لأنها توقف المهزلة البشرية:

كوني الثريا لو حضار أو الـ جوزاء أو كالشمس لا تلد
فتلك أشرف من مؤنثه نجلت فضايق بنسلها للبلد^(٣)

أبو العلاء يخشي علي النسل من أن يعاني مثل ما عاني، بل هو لا إذ لا يتخيل أن ينجو وليد من الأذى في الحياة يقول :

نادي حشا الأم الذي اشتملت عليه ويحك لا تظهر ومت كمدا
فإن خرجت إلي الدنيا لقيت لذي من الحوائث بله للقيظ والجمدا
وما تخلص يوما من مكارها وأنت لا بد فيها بالغ أمد^(٤)

وحين ينظر أبو العلاء إلي الطير والحيوان يجدهما شديدي الحرص علي نسلهما والدفاع عنه، ويرغب في ألا يكون لقل منهما نبلا وحنانا^(٥)، ويرى الوسيلة الوحيدة لرعاية نسله وحمايته هو أن يجمده في صلبه، مخالفا سنن الحياة كلها، بل متحديا الحياة بأنها لن تستطيع أيداء نسله كما أنته من قبل^(٦) وأنه لن يدفع بفلاذات كبده إلي مغالبة كسوة الكون وغوامضه ومآهاته^(٦).

(١) ل/٢ ص ٢٥٧ للصليانة بنت تحبه العير وليس له تمكن في الأرض.

(٢) ل/٢ ص ٢٧٦.

(٣) ل/٢ ص ١٩٤ وكذلك ل/١ ص ٢٥٢

(٤) ل/١ ص ٢٥٩

(٥) ل/٢ ص ١٤

(٦) ل/٢ ص ٣٦٩

ولأن المرأة ما زالت تعيش وتتحداه بحرمانه منها، وتتحداه بتعمير الكون فليس يملك إزاءها إلا الدعاء بأن تولد في قبرها بدلا من خدر عرسها^(٢) فالمرأة والسعادة في الحياة لا يجتمعان في عينيه أبدا:

بدء السعادة أن لم تولد امرأة فهل تود جمادى أنها رجب^(٣)

ولا يخلو نم أبي العلاء للزواج وتعطيله للنسل من أنانية وحب للذات وخوف عليها، لأنه - كما نرى في شعره - لا ينتظر الخير من النسل، بل تتملكه وسواس العقوق، ويقيس صورة أبنائه بما يراه في المجتمع من أخلاق. فالنسل في شعره مشقة وأجحاف^(٤) وعقوق للأبء^(٥) والمتمنى للولد كالمنتحر لأنه يتمنى وحشا يفترسه^(٦).

تمنت غلاما يافعا نافعاً لها وذاك دهاء دس فيه الدهارس
سررت به إذا قيل أعطيت فارسا وما هو إلا ضيفم لك فارس^(٧)

يرى المعري أن أعدي أعداء الإنسان أبناؤه^(٨) بل إن البهائم ذاتها تشكو نسلها^(٩) وتعاني منهم وكان العقوق والجحود قانون سرمدى للحياة في عينه.

وموقف أبي العلاء هذا من المرأة ومن النسل - وهما شئ واحد - ليس بمعزل عن موقفه من المجتمع وعزلته عنه، وقد مر بنا وصفه لأخلاق هذا المجتمع وازدراؤه له، - فعلي الرغم من وجود كثير من المواضع في شعر أبي العلاء التي ينم فيها المرأة ويشكك في عنتها وأخلاصها، فإن كثيرا من المواضع الأخرى في هذا الشعر يهيب فيها المصرى بالمرأة أن تتحفظ وتحذر من كل شئ به شبهة، ولن تكون أكثر حرصا على ذاتها، ويتوجه إليها في كثير

(١) يذهب إلى هذا الرأي كل من: صاحب قضايا العصر في لب أبي العلاء ص ٢٧٦،

٢٧٩ وصاحب " المعري ذلك المجهول ص ٣٥ وصاحب الفكر والفن ص ٢٧٨

(٢) ل ١/ ص ٤٠٠.

(٣) ل ١/ ص ٧٥.

(٤) ل ١/ ص ١٦٥.

(٥) ل ١/ ص ٦٠.

(٦) ل ٢/ ص ١٧ ومثله قوله في ل ٢/ ص ١٦٧

(٧) ل ٢/ ص ١٧ ومثله قوله في ل ٢/ ص ١٦٧

(٨) ل ١/ ص ٤٠٩

(٩) رسالة لهناء/ ص ١٤٧

من الشعر كاشفا لها الإثراك التي قد تزل فيها قدمها، محاولا الحفاظ علي وجود كريم لها، وفي مثل هذا الشعر، يضع أبو العلاء كل طبقات المجتمع في سلة واحدة من الاتهام، يضع العربي والعجمي، الزنديق والدين، رأسا لنا الاضطراب البشع في مجتمعه.

ولا تلجن الحمام قد جاء ناصح	بتحريمه من قبل أن يفسد الناس
فكيف به لما اغتدي في طريقه	رجيب وحواش وتنج وأشناس
تمازج بالعرب الأعاجم، والتقي	علي الغدر أنواع تدم وأجناس
أناس كتوم ذاهبين وجوهمهم	ولكنهم في باطن الأمر لسناس ^(١)
جزى الله عني مؤنسا بصدوره	جميلا فقي الإيحاش ايناس
تخافين شيطاننا من الجن ماردا	وعندك شيطان من الأتس خناس

وينادي أبو العلاء بتزويج المرأة^(٢) - رغم معارضته للزواج- أحصانا لها وضمانا لرجل يرعاها ويؤود عن محارمها، ويخشي علي المرأة من امرأة مثلها تحضها علي الفساد، ومن الطفل الذي لم يبلغ الحلم، كما يخشي عليها من الجار^(٣) بل يرفض ذهابها للحج والطريق إليه محفوف بالمخاطر^(٤)... وقد تجاوزت غيرته المرأة للمسلمة لتصل إلي حد أن يغار علي المرأة الأجنبية التي أباح الإسلام سببها^(٥) فيتوجع لما ينالها من لذي السبي،.... ولأن علاقة أبي العلاء بأمه كانت علاقة قوية، فقد توجه في شعره بالتكريم لكل عجوز، وأوصي بصونها أيا كان دينها^(٦).

ولكل هذه المخاطر التي تتعرض لها المرأة والتي تهدد عفتها ونقاءها بالخطر اعتبر أبو العلاء المرأة الصديقة الوفية كنزا في حد ذاتها^(٧) وراي

(١) ل/٢ ص ١٤

(٢) ل/١ ص ٢٠٢

(٣) ل/١ ص ٤٠١

(٤) ل/٢ ص ٣٢٥

(٥) د. صلاح مصيلحي . عبدة أبي العلاء . دكتوراة بتربية طنطا . لشرف د. يوسف

خليف / ١٩٨٥م / ص ١٤٨

(٦) ل/١ ص ٣٩٠

(٧) ل/١ ص ٤٠٠

الحصان الوفية جمالا مطلقا وأن كانت دميمة^(١) وإن من تزوج بمثل هذه الحصان يستحق التهينة الحقيقية^(٢) وكان أبا العلاء يصف لنا المرأة المثال التي يتمناها^(٣)!

لذلك نرى " توفيق " الفتاة للسوداء الدميمة الحصان في الحياة منعمة في جنة غفرانه^(٤)... أن كل العوامل التي دفعت أبا العلاء إلي العزوف عن المرأة والمناداة بتعطيل النسل- كل هذه للعوامل لم تمنع معاناته مما فرضه علي نفسه من هذا النوع من العزلة والاتفصال عن الحياة، فقد منع نفسه من إشباع حاجاتها الفطرية، وحال دونها وغرائز في غاية الأهمية في حياة الإنسان: غريزة حب الحياة والابقاء عليها بالإشباع المادي منها، وغريزة حب النوع والحفاظ عليه بالتكاثر" وإذا كان ارتباط الأنا بالموضوع، والموضوع جزء كبير منه عائلة الإنسان- إذا كان هذا الارتباط- يعوق الاتصال الروحي، فإن افتقاده يفعل ذلك الشيء، ويفضي إلي الغربة والوحدة والجزع الروحي والقلق النفسي"^(٥).

وهذا النوع من العزلة أيضا من عوامل اشتهاه أبي العلاء للموت^(٦) حيث تتجاوز المرأة ويتجاوز النسل معنيهما المباشر ليصبحا رمزا للانتماء إلي الحياة، ومعني للديمومة والألفة، مما يحزن أبو العلاء علي فقده فيقول:

إذا لم يكن خلفي كبير يضيعة حمامي، ولا طفل ففيم حيتي

وما العيش إلا علة برؤها الردي فخلي سبيلي انصرف لطياتي^(٧).

وفي أحد مواضع الفصول والغايات^(٨) يمزج أبو العلاء بين فقده لوالديه- الماضي- وحرمانه من نسل يحمل لسمه- المستقبل- ويصور نتيجة اجتماع هاتين المصيبتين عليه ممثلة في المزيد من الشعور بالوحدة والعزلة . إذن فقد اجتمعت علي أبي العلاء صنوف من العزلة بعضها خلقتة

(١) ل٢/ص ٢٠١.

(٢) ق٢/ص ٨٤٤.

(٣) د. عبد القادر زيدان. قضايا للعصر في أدب أبي العلاء المعري. الهيئة المصرية للعلمة للكتاب. سلسلة كتابات أدبية/ ١٩٨٦م/ ص ٢٩٥

(٤) رسالة للخزبان ص ٨٢ وتوفيق للسوداء كانت تخدم بدار العلم ببغداد

(٥) للمشكلة للخاتمية/ ص ٢٨٤.

(٦) ل٢/ص ٤٠.

(٧) ل١/ص ١٧١.

(٨) للفصول والغايات/ ص ٣١

محنة فقد البصر، وبعضها الآخر خلقه تكوينه النفسي المتولد من هذه المحنة، كما أن بعضها يرجع إلي الخلل في بنية المجتمع، وبينما تعتقد الفلاسفة أن العزلة- في مجملها- نتاج معرفة الشخص بداته، وبالعالم من حوله، بينما تعتقد ذلك، لا تحبذ هذه العزلة في كل الأحوال، لأن هذا الانفصال أو الانعزال، إذا نظرنا إليه من ناحيته الإيجابية يكون الحرية، أما من ناحيته السلبية فهو الاغتراب^(١). كذلك فإن علم النفس يرى أن الصحة النفسية للفرد رهن التكامل أو التوافق التام بين وظائفه النفسية، وقدرته علي مواجهة الخارج والتكيف معه^(٢).

أن رفض الواقع إمعان في العزلة، إمعان في الانفصال عن الحياة برمتها، ويصل أبو العلاء إلي هذه الدرجة من الاغتراب، حين يصف نفسه بالمانت في الحياة، أو الحي المانت:

ألم تر أنني حيّ كميّت أداري الوقت أو ميت كحي
أحائر عالمي وأخاف مني فالحي الناس بله بني لحي^(٣)

ويسيطر عليه هذا الشعور، فيحتذر لأحدهم- حين يعزبه في عزيز فقده- بأن انقطاع صلته به إنما لأنه من الأموات لا من الأحياء الذين يتواصلون اجتماعياً يقول:

لو كنت حيا ما قطعتك فاعتذر مني إليك لخلّة بأمّتها
فالأرض تعلم أنني متصرف من فوقها وكأنني من تحتها^(٤)

أن البيت الأخير يصف اغتراب أبي العلاء الاجتماعي ويصف أيضا كل ما يدعوه إلي العزلة،... وقد أدرك البطليموس من خلال هذه الأبيات أن أبا العلاء يشير بالموت إلي اعتزله للناس وانقباضه عنهم^(٥) ويصف أبو العلاء نفسه دائما وهو يصارع طرفين متناقضين أحدهما المجتمع بأسره، والثاني عالم

(١) أريك فروم، الإنسان بين المظهر والجوهر ترجمة سعد زهران مراجعة وتقديم لطفي فطيم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت سلسلة عالم المعرفة رقم

١٤٠ سنة ١٩٨٩م/ص ١٤

(٢) سيكولوجية المرضى ونوي العاهلت، ص ٤٧

(٣) ل ٢/ص ٤٤٧

(٤) ق ٣/ص ١٠٢٨، ١٠٢٩

(٥) السابق/ص ١٠٢٩

الموت^(١) وحين يحق الاختيار بينهما، ينتمي أبو العلاء إلى الموت: ليظفر
بالعزلة فهي أكثر حنوا من عالم الأحياء البارد:
أن الذي الوحشة في داره تؤنسه الرحمة في لحدّه^(٢)

(١) ق ٣ / ص ١٠٢٧ .
(٢) شروح سفيط الزيد / ق ٣ / ص ١٠٢٧